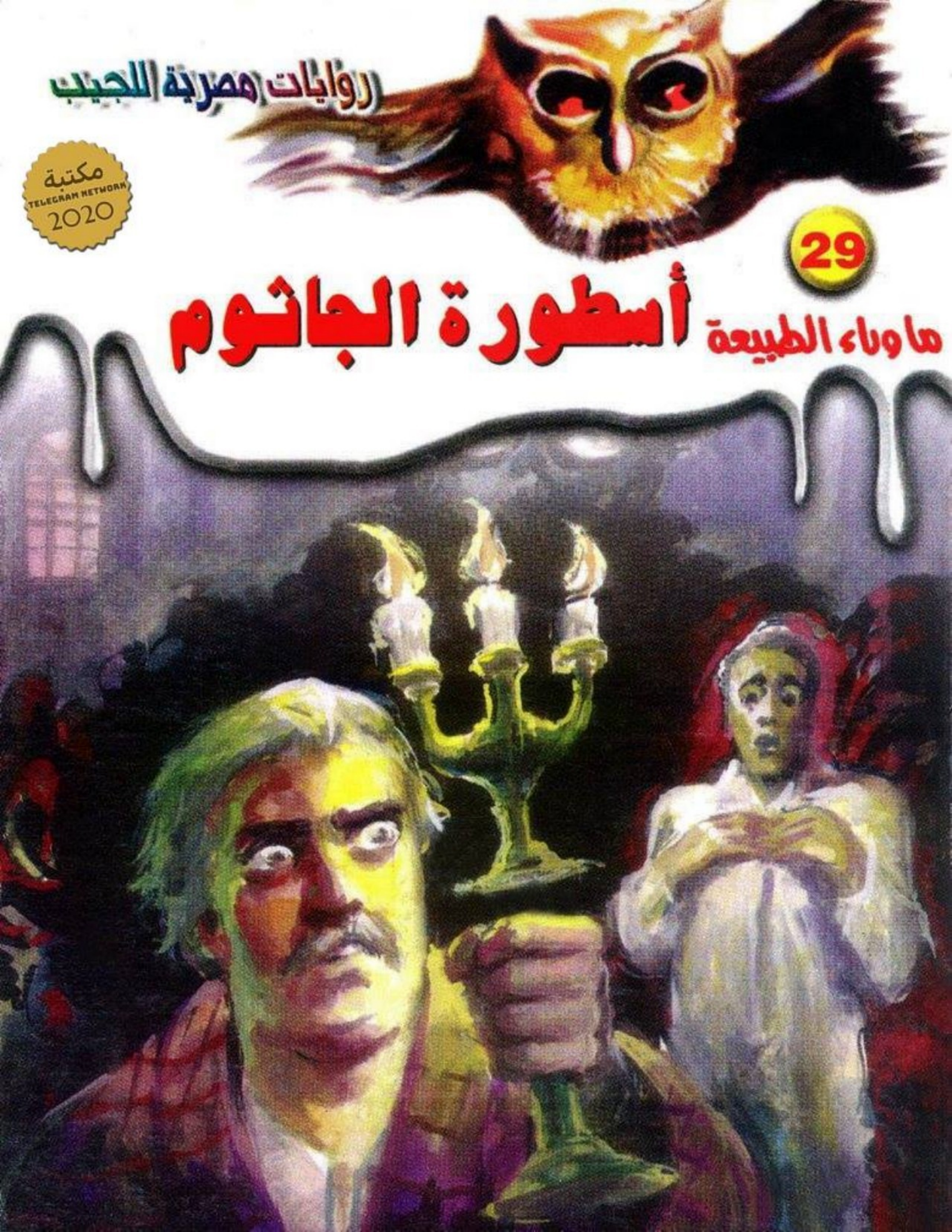

روايات مصرية للجيب
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020
29
ما وراء الطبيعة
أسطورة الجاثوم



TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

# مقدمة

الآن وقد جاء المساء، وأوت الشمس منهكة إلى فراشها بانتظار يوم جديد يكون عليها فيه أن تبدّد الخوف وتنشر الأمل والدفء في النفوس...

الآن فقط يمكننا أن نستكمل القصة التي بدأناها في الكتيب السابق والتي سنقرأ ملخصًا رديئًا لها في الصفحات القليلة القادمة، كما هي عادتي في القصص عديدة الأجزاء...

وأنا أتعشم أن يكون ملخصًا رديئًا حقًّا، لأن المقياس الصحيح للعمل الأدبي الجيد هو ألا يمكن تلخيصه.. فلو استطعت

تلخيص رواية ما، في بضعة سطور، لكان هذا دليلًا على رداءتها، واندراجها تحت ما يُسمّى بالقصة الخبرية، وهي أحط أنواع القصص..

ولكن دعونا من عالم النقد الأدبي قليلًا.. ولنعد إلى سياق قصتنا التي أتعشم ألا تكونوا قد أضعتم جزءها الأول.. إن عادة وضع الكتاب فوق جهاز التليفزيون لعادة ذميمة نهيتكم عنها مرارًا دون جدوى.. فالكتاب يضيع دائمًا بهذه الطريقة ولا تجده أبدًا..

سأستكمل خطاب (هـ) الطويل هذا...

بعد ذلك تنتهي سلسلة الأعداد التي تتحدّث عن تجارب الآخرين، وأعود لكم أنا (رفعت إسماعيل) من جديد، آملًا في أن

يكون بينكم واحد - مجرد واحد ـ قد افتقدني..

إن العرب يقولون (زر غبًّا تزدد حبًا).. أي زر الناس على فترات متباعدة كي يحبوك ولا يملوك..

وهذا هو ما أفعله الآن....

ستبدأ قصة الجاثوم فخذوا مقاعدكم.. اربطوا الأحزمة.. وكفوا عن التدخين.. ولا بأس بشهيق عميق لمزيد من الاسترخاء...

إن مطار ما وراء الطبيعة ينتظر طائرتنا في شغف..

❋ ❋ ❋

# ١ - محتوى الكتاب الذي أضعتموه..

هذا خطاب جديد من شخص يدعى (هـ).. وهو مدرس في الثلاثين من عمره... متزوج ولم ينجب.. مصري الجنسيّة..

من السطور الأولى ندرك أنه شخص هجومي مستفز نوعًا، ويصب سيلًا عدوانيًا على أم رأسي دون سبب..

ويزعم (هـ) أن ذكاءه هو السبب الذي جعله يمقت الآخرين ويمل غباءهم.. وأنا لست ذكيًا، لكني أفهم ما يتكلم عنه..

و ومشكلته فريدة من نوعها حقًّا..

المشكلة هي سلسلة من الكوابيس تطارده في آخر الليل، أو ـ كما قال هو ـ في ساعة الذئب، أي الساعة التي يكون المرء فيها في أوهن حالاته البدنية والعقليّة..

الكوابيس تدور كلها حول مطاردة في قصر بينه وبين كائن مريع لا يستطيع وصفه بدقة...

لكن الكابوس ينتهي فيٍ لحظة المواجهة الأخيرة.. وينهض صارخًا من النوم، ليجد في كلّ مرّة جسمًا من مخلفات الكابوس في فراشه.. مشعلًا أو مفتاحًا أو قطعة عظم..

بدأ (هـ) يشعر بأنه يُقاد إلى الجنون، ويستشير أحد أطباء النفس - وهو الدكتور (م.ن) ذائع الصيت - لكنّ الطبيب يجد أن ما يعانيه (هـ) هو داء المشي في أثناء

النوم، كنتيجة حتمية لعجزه عن الإنجاب، وهو الرأي الذي يجده (هـ) سخيفًا..

ويجري (هـ) تجربة رصينة للتأكّد من أنّه حقًّا لا يمشي في أثناء النوم..

فيضع المقاعد حول الفراش، ويستوثق من أنّه لا يحمل معه إلى الفراش أجسامًا ما..

لكن التجربة تتكرر، ويصحو من النوم ليجد عظمة - من الكابوس - جواره في الفراش...

إن الكابوس قد بدأ يتخذ منعطفًا خطرًا؛ ألا وهو المواجهة بين (هـ) و(النكرومانسر)... أي الشخص الذي يمزق جثث الموتى لمعرفة أسرارهم..

وبالتدريج راحت الكوابيس الليلية المتكررة تؤثر على (هـ) الذي ازداد عصبية وتوترًا، وصار أكثر قابلية للشجار، سواء في المقهى الذي يحاول قضاء الليل ساهرًا فيه حتى لا ينام ثانية، أو في العمل، أو مع شقيق زوجته الذي يحاول التدخل السافر في حياته..

لقد تخلت الزوجة عنه خشية على نفسها من كل هذا الخبال..

ولم يعد أمامه سوى المزيد من الكوابيس...

مطاردات بينه وبين الوحش - عرفنا أن اسمه الجاثوم - تقود إلى حافة هاوية تتدلى من سقفها عشرات الهياكل العظمية، وفي قاعها تلتهب الحمم، ويحاول (هـ) الدفاع

عن نفسه بأن يصحب معه منشارا كهربيًا في الحلم.. وبهذا يتمكّن من بتر يد الجاثوم التي تمسك بكاحله..

وفيما بعد نعرف أن (هـ) وجديد الجاثوم في فراشه حين صحا صباحًا!

* * *

إن تغيير المكان قد يكون حلًا ناجحًا للعلاج..

ويرتحل (هـ) في إجازة قصيرة إلى الإسكندرية إسكندرية الشتاء باهرة الحسن - ليقيم في بنسيون مدام (إيريني) اليونانية العجوز..

ويدخل السينما ليرى فيلمًا يسلي به وحدته التي بدأت تنهشه بأنيابها، فيتعرّف بالصدفة فتاة تدعى (إيناس) تجلس بجواره...
كلا.. هي ليست حسناء.. لكنّها لطيفة المعشر مثقفة متحضرة إلى حد كبير.. تثير فيه الإحساس بصديق لا بأنثى..
مدرسة هي من الإسكندرية.. مطلقة.. في الثلاثين من عمرها، وقد خرجت من تجربة فاشلة وقد أزمعت أن تكون أقوى وأصلد.. وهي تعيش مع ثلاث فتيات في شقّة بالإسكندرية بعيدًا عن أسرتها، وإن احتفظت بتقاليدها وتربيتها..
لقد تبدلت حياة (هـ).. إن أيامًا باسمة تنتظره ها هنا..

لكن الكوابيس لم تتوقف.. وهو ذا يرى حشدًا من المطاردات بينه وبين الجاثوم خارج القصر هذه المرّة.. ومطاردات في حقول القمح، تنتهي في كلّ مرّة بمأزق لا فكاك منه.

وهنا تجيء (إيناس) بعرض خاص.. رحلة إلى عزبة تمتلكها صديقة ثرية لها، تدعى (مها)... والرحلة تضم (إيناس) و(هـ) و(محيي) الشاب المتظرف وخطيبته (غادة).. و(سيد الشمندورى) وزوجته (هويدا) - خطيبتي السابقة - و(مها) وخطيبها (عبد الرحيم)..

ويقبل (هـ) لأنّه لا يجد شيئًا أفضل يفعله..

إن العزبة جميلة حقًّا.. وبها قصر جدير بالملوك..
لكن الحقيقة المروعة التي تصدم (هـ) هي أنّ هذا هو القصر الذي يراه في كوابيس كل ليلة.. وحقول القمح هذه هي ذات الحقول!
الشمعدان الفضي.. اللوحة الجدارية.. الستار الأحمر..
ويحاول (هـ) فتح الباب المغلق الذي فتحه في كوابيسه، لكنه لا يجد فرصة للانفراد أبدًا... ويضطر لترك الباب مغلقًا لكنّ قفله مفتوح، وثمّة ما يدعوه للشعور بأن شيئًا ما غادر الحجرة.. شيئًا لا يجب المرء أن يراه أبدًا..

كان الكل يمرحون في العزبة.. حين حاول (هـ) أن يجرب الرواق المظلم إلى اليمين... فالكوة التي في نهايته - الكوة التي تقود إلى وكر (النكرومانسر) - ويجتازها..

ثمة ما يوحي بأن (النكرومانسر) كان هنا حقًّا..

ويحاول (هـ) الخروج من الكوة، لكنه يشعر بأن قبضة قوية تمسك كاحله!

وبعد صراع عنيف يعبر الفجوة... ويفر عائدًا إلى رفاقه...

وينهى (هـ) الجزء الأول بتساؤلات ميتافزيقية مريرة:

- هل هو حقًّا يمشي في أثناء النوم، وزار هذا القصر مرارًا وهو غاف؟

- هل عاش في هذا القصر يومًا في الماضي، ثم نسي أمره؟

- ما هو الجاثوم؟

- لماذا انفتح باب الحجرة التي لم يحسن غلقها؟

- لماذا هذا القصر بالذات؟

من المفترض أننا سنعرف الجواب في هذا الجزء بالذات، وإلا كان كل هذا مستفزًا..

دعنا نكمل الخطاب معًا إذن...

* * *

## ٢- فلتمر الساعات..

كنت أرتجف رعبًا..
أرتجف توجسًا..
أرتجف اشمئزازًا...
وشعرت بحيرة غير عادية.. مرة أوقن أن ما أمر به هو كابوس آخر لن يلبث أن يوقظني منه رنين المنبه، ومرة أستدرك نفسي وأقول: إن هذا حقيقي تمامًا.. فأنا لم أعبّر بعد الثغرة الفاصلة ما بين الوهم والحقيقة..
أنا لا أحب هذا المكان..

وسأكون أكثر رضا لو غادرته على الفور...

لكني مكثت فيه لم أبرحه، لأني مرتبط بالآخرين.. ولأني كالإنسان الذي رأى عقربًا للمرة الأولى في حياته.. وبرغم الإحساس بالخطر الداهم، لم يستطع أن يفر مبتعدًا عن هذه الأعجوبة.. إن الفضول يخنقه كي يتعلم أكثر.. الجوع السرمدي إلى الحكمة..

إن الحقيقة التي لم تبرح ذهني، هي أنني رأيت كل تفاصيل هذا المكان في كوابيسي السابقة..

*** 

كان ضوء الغروب يغمر الموجودات بتلك المسحة الزرقاء الباردة غامرة الحزن، وقد وقفت أرمق هذا مبلبل الفكر..

حين دنت (إيناس) لتقف إلى جواري.. واحترمت صمتي برهة... ثم لم تلبث أن تساءلت، وهي ترنو لما أرنو إليه:

- «هل أحببت زوجتك؟»

سؤال غريب.. وإجابة أغرب بالتأكيد...

قلت لها في كياسة:

- «لا أدري.. قليلون هم الرجال الذين يتساءلون عما إذا كانوا يحبون زوجاتهم.. إنهن موجودات وهذا كاف.. ولا يمكنني أن أرى زوجتي دون أن يحاصرها نسيج من ذكريات الكفاح المشترك والحزن المشترك..»

- «أنت تتحدّث عن التعود والألفة.. لا عن الحب..»
قلت في ملل:
- «ربما.. لكني - دون فلسفة لا طائل منها - أحب وجودها بقربي.. ولا أشعر بارتياح كثير لرحيلها..»
- «وأنا؟»
- «أنت؟ أنت صديقتي!»
هنا سمعنا من ينادينا للعشاء....
وكما حدث في الغداء؛ سيخلد تاريخ هذا اليوم لدى نحل العسل.. ولدى الأبقار الحلوب.. ولدى الدجاج البياض.. باعتباره يوم التضحية الكبرى...
كان (سيد الشمندوري) يكدس الطعام بين شدقيه دون كلل ولا توقف.. وتكونت

بطيختان صغيرتان حيث كان خداه.. حتى إنني رحت أتساءل في هلع: متى وكيف سيبتلع كل هذا؟

أما الأب ـ الثرى الريفي عدو التأميم ـ فقد جلس يبتسم ابتسامة فخورًا، وهو يجيل عينيه بين تلك الحيتان، التي تطعم من طعامه وتشرب من شرابه..

لقمة أو اثنتان ـ لا أكثر ـ مد يده بوقار ليمسحهما في طبق البيض المقلي، ثم يرفعهما إلى فمه.. ويحرك شفتيه في تؤدة..

ثم إنّه تنحنح، وقال بذات الوقار وهو يضم عباءته على جسده:

- «لقد أسعدتمونا.. وكنت أرجو أن تظلوا معنا هذه الليلة.. لكني بمشاغلكم عليم..

لهذا لن أثقل عليكم..»
ونظر نظرة ذات معنى إلى سائق سيارة الأجرة الذي كان يلتهم الطعام معنا.. فسارع هذا يفتح قطعة كبيرة من فطيرة ويدس فيها بعض البيض والجبن، ثم يطويها على شكل شطيرة.. وينهض كي يعد العربة...

مالت (إيناس) على مسمعي لتهمس:

- «كان ككل يوم في حياتك.. واحتفظت أنت بكآبتك العتيدة.. فلم تأكل ولم تمرح.. ماذا دهاك؟»

قلت لها وأنا أتنهد بعمق:

- «إن ذلك الشعور.. الشعور بأن المكان مألوف.. لن أتخلص منه أبدًا ما لم أبتعد..»

ولم أصارحها بأن المكان ليس مألوفًا فحسب..
بل هو المكان ذاته بكل تفاصيله!

* * *

غريبًا كمتسول في الأوبرا.. كئيبًا كالخريف.. شارد الذهن كـ (أحمد شوقي) وهو يتلقى إلهام قصائده في (كرمة بن هانئ)، هكذا اتخذت موضعي في السيارة جوار السائق..
كان يلهث متثاقل الأنفاس من فرط ضغط بطنه الممتلئ على حجابه الحاجز.. وتجشأ، فأفعمت أنفي للحظة أبخرة الفطير (المشلتت) والجبن القديم...

واهتزت العربة إذ تكدس الباقون فيها في نفس المقاعد السابقة تقريبًا.. وأطلق أحدهم دعابة سخيفة، ضحك عليها أضعاف ضحك من سمعوها...

وظهر شبح الأب ومعه خادمان.. مدثرين في الظلام، وهو يرفع يده مودعًا..

عندها أغمضت عيني.. وهمست في سرّي:

- «وداعًا أيها (الجاثوم).. لربما التقينا كثيرًا فيما بعد.. لكنّ هذا اللقاء سيكون دائمًا في الحلم.. ولسوف يظل من حقي أن أصحو صارخًا أرتجف، فأنجو منك..»

كررررررووووه! كررررررراك! كرررررروه!

المحرك اللعين يأبى أن يستجيب..

كرررررووه! كرررررررررره!

جذب السائق شهيقًا عميقًا، وأطلق سبة صغيرة - وهي طريقة ناجحة لجعل المحرك يعمل ـ ثم واصل محاولة بعث الحياة في الوحش الحديدي النائم.. لكنّ لا...

- «(ننزل نزق؟)»

سأله (محيي) متظرفًا حيث جلس على يميني.. لكن السائق حاول من جديد إيلاج المفتاح دون جدوى ولم يرد...

غادر مقعده متثاقلًا، وفتح الغطاء الأمامي وراح يعبث هنا وهناك.. وأنا لا أفهم حرفًا في ميكانيكا السيارات.. ولهذا لا أعرف سوى أنه سيعلن بعد الفحص أن العيب في (الكبالن) أو (الفيوز) أو (الدفرانس) أو

(الحنجهور).. أي شيء.. المهم أن السيارة لن تتحرك..
كنت أدرك هذا منذ اللحظة الأولى.. وأنتظره...
إن القصر يريدني هذه الليلة!
لقد سمعت نداءه... وشعرت به في كل عظمة من عظامي، وكل عصب من أعصابى..
أنا الرهينة التي يريد القصر الاحتفاظ بها، مقابل إطلاق سراح الباقين. إن لقاءنا اليوم هو لقاء صديقين قديمين.. ولن ينتهي بهذه البساطة أبدًا...
وسمعت السائق يحدث مضيفنا.. ويشوح بيده.. ويشير إلى المحرك.. بالتأكيد يفسر

له سبب عطب (الدفرانس) أو (الكبالن) أو (الحنجهور) أو أي شيء يعتقد أنه فسد..

لا تضيعوا الوقت يا سادة.. إن سبب عطل السيارة هو (الجاثوم) ولا شيء سواه!

وسمعت أطرافًا من الحديث.. تحملها أنسام الليل إلى مسمعي..

- «(الرادياتور).. لم أعلم أن.....»

- «سيارة أخرى.....»

- «لا يوجد.. إصلاح.. ميكانيكي.. القطار يمرّ من هنا.. السابعة صباحًا.. آخر قطار قد.......»

- «مبيت.. الحل الأوحد..»

مبيت؟! يا للنهار الأسود! مبيت؟!

هل وصل الأمر إلى هذا الحد؟

نظرت نحوهم في ذعر، وأدركت أن الأمر حقيقي.. هناك قضيب قطار يمرّ جوار العزبة، ويتوقف القطار ذاته لثوان تكفي لتسلقه من دون رصيف، لكنّ هذا القطار لم يعد هنالك.. لن يمرّ قبل السابعة صباحًا...

ورأيت الآخرين يغادرون السيارة، وقد بدا الذعر على الفتيات... وهتفت (غادة) في هستيريا، وهي تكور قبضتيها على خديها، فيما يشبه (اللطم):

- «مستحيل أن نبيت هنا.. إن (بابي) سيجن هلعًا!»

تأملتها في حنق.. من المستحيل أن يكون لهذه الفتاة (بابي) ولا (بابا).. لا يمكن أن يكون لديها أكثر من (أبويا)..

وهنا تدخلت (إيناس) بهلع مماثل:
- «إنِ هذا ببساطة مستحيل.. لابد أنّ هناك حلًا..»
- «هناك حل..» - قال السائق وهو يسترخي على مقدمة السيارة:
- «وهو أن تمشوا في الظلام عبر الحقول المقفرة، قاصدين (أبو حمص).. إن الكلاب هنا ليست شرسة إلى هذا الحد.. فهي تكتفى بعضك في مؤخرتك دون أن تقتلك..»
قالت (مها) التي كانت أكثرنا هدوءًا. فهي تتحدّث عن المبيت في دار أبيها:
- «تعقلن يا بنات ولا داعي للبلاهة.. إن هي إلا ليلة تمر بالطول أو بالعرض.. وفي الصباح الباكر يعود الجميع.. إن قصر أبي

مليء بالحجرات، وكلها مفروشة صالحة للمبيت..»

صاحت (غادة) بنفس الهستيريا:

- «إن (بابي) سيذبحني لو بت خارج الدار ليلة واحدة.. إننا صعايدة ولا نمزح في هذه الأمور..»

تأملتها في مزيد من الغيظ.. من هو (بابي) الصعيدي الذي يسمح لابنته بالخروج في نزهة مع فتاها بعيدًا عن رقابته؟ لو كان يعلم فتلك مصيبة.. أو كان لا يعلم فهي كارثة.. لست متزمتا لكني أمقت الادعاء.. إما أن تتحمل قرارها في شجاعة مثل (إيناس)، أو تظل في كنف (بابي) ولا تتظاهر بالتحرر..

صاحت (مها) في صرامة معاتبة صديقتها:

- «نحن قوم محترمون، يا (غادة).. ولسوف يفهم أبوك هذا فورًا..»

وهكذا.. أدركت في هلع أننا حقًّا سنبيت ها هنا..

يمكنني ألا أفعل.. يمكنني أن أصر على العودة راجلًا إلى (أبو حمص).. لكنّ منظر الحقول المظلمة وأد هذا القرار في مهده.. ثم إن هذه الحقول صالحة تمامًا لكابوس جديد.. أركض فيه و(الجاثوم) في إثري..

العرق البارد يبلل جبينى، وأمعائي تتقلص على ما فيها من لحم طيور وبيض وجبن وسمن..

صوت الأب يقول في وقار:
- «إن الهاتف هاهنا.. الهاتف الوحيد في العزبة....»
- «حمدًا لله! يمكننا أن....»
- «لكنه معطل منذ أسبوع!»
لو كان هذا الهاتف الأحمق سليمًا؛ لاقترحت على الآخرين أن نستدعي أية سيارة.. ولو كانت سيارة بوليس النجدة، أو الإسعاف، أو نقل الموتى.. المهم أن نعود إلى الإسكندرية الليلة..
لا أريد المبيت في مصيدة الفئران هذه..
وبخطوات جنائزية متثاقلة عدنا إلى القصر..
القصر الذي يضحك في تشف وهو يرمقني.. ولسان حاله يقول لي: أرأيت؟ لا

مفر هنالك.. أنت لي!
كانت (غادة) تنشج في إنهاك؛ فطوقها (محيي) بذراعه متظاهرًا بالفروسية أمّا (هويدا) وزوجها (الشمندوري) فقد بدا عليهما السرور.. فهما معًا.. والتجربة جديدة.. فما المشكلة إذن؟ صحيح أنها قالت شيئًا عن أمها العجوز.. لكنه طمأنها إلى أن شقيقتها (سهام) ستعني بها..
وعند المدخل توقفنا....
قالت لي (إيناس) في رفق وقد فهمت ما يدور بخلدي:
- «تشجع.. كل هذه أوهام..»
- «هل.. هل أنت واثقة؟»
- «ألم نتحدث عن ظاهرة (ديجا - فو)؟»
- «بلى.. ولكن.....»

ودون أن أكمل عبارتي؛ دلفت إلى الداخل..
كان كل شيء طبيعيًا ولا يثير أي مخاوف في النفس..
ربما باستثناء ملحوظة واحدة.. كانت (إيناس) هي من لفت نظري إليها.. وسرعان ما فطنت إلى أنها محقة...
لماذا انغلق الباب ورائي ما إن دخلت القصر؟
تقولون إنني جذبته خلفي؟ كلا.. لم أفعل.....
أقسم بالله إنني لم أفعل**!**

* * *



وبخطوات جنائزية متثاقلة عدنا إلى القصر ..
القصر الذى يضحك فى تشفٍّ وهو يرمقنى ..

## ٣ - *ليلة لا أكثر..*

---

كانت أمسية أسود من كل ليالي (النابغة الذبياني)[1].. صحيح أن العاديات لم يفرشن لي هراسًا به يُعلى فراشي ويُقشب.. لكنّ أبا (مها) تكفل بهذا الدور، بحديثه الممل الذي لا يتعب أبدًا عن أمجاد أسرته.. وتاريخها العريق..

كان هناك شطرنج قديم تأكلت حواف رقعته؛ واستعاضوا عن الرخ الأسود (الطابية) فيه بعلبة ثقاب.. جلس (عبد الرحيم) و(محيي) يلعبان به على الأريكة..

على حين راحت (مها) تعرض صور الأسرة على النساء.. (هويدا) و(إيناس) و(غادة).. وهي صور في ألبوم ثمين تحمل جميعًا ذلك اللون الأخضر الزيتوني المميز لصور الماضي.. وبها مجموعة غير عادية من الشوارب التي تقف عليها الصقور والطرابيش، ونساء يرتدين الدانتيلا يتظاهرن بالرومانسية والخضوع التام لأزواجهن..

ومن آن لآخر يدور علينا الخادم النوبي بأقداح الشاي والقهوة.. ويعيد إشعال (النارجيلة) لسيده..

ومن جهاز (الفونوغراف) تصاعدت أغنية تركية، من تلك الأغاني التي تحسبها

في البداية أغنية عربية يتم سماعها بالعكس!

إن هذا الرجل يبالغ حقًّا...

و(مها) ما زالت تتكلم:

- «.. أمّا هذا فهو جدي الأكبر.. (عبد الحميد باشا).. الذي نزح من (الآستانة) إلى مصر.. وأزمع أن يقيم بها أبدًا، فرارًا من الوالي العثماني الذي لم يكن ميالًا إليه..»

سألتها (إيناس) دون اهتمام حقيقي:

- «إذن هو من أنشأ هذا القصر الفخيم؟»

- «كلا.. لقد اشتراه من صاحبه.. وصاحبه كان قدا استولى عليه بعد مذبحة المماليك..»

- «صاحب القصر الأول كان مملوكيًا؟»

- «نعم.. الأمير (كتخدا طومان).. يُقال إن (محمد علي) ذبحه بيده.. فرصاص الجند لم يكف لقتله..»
سألتها (غادة) وقد بدت منبهرة بكل هذه (العراقة):
- «وكيف تحفظين كل هذا؟»
قالت (مها) في فخر، وهي تغلق الألبوم وتضمه لصدرها:
- «إنّه التاريخ.. تاريخ السادة الذين حكموا هذا البلد..»
هنا تصاعد الدم إلى رأسي.. أنت تعرف ضيق خلقي منذ أن ابتليت بهذه الكوابيس.. فتدخلت في المناقشة:
- «لقد ظل هذا البلد قرونًا يعاني حكم هؤلاء السادة، وحكم كل بائع دخان في

(الآستانة) جاء ها هنا ليجلد الفلاحين بالسياط.. الفلاحين الذين هم جدودي.. الحفاة العراة الجائعون...»

صاحت (إيناس) في حرج محاولة إخراسي:

- «(هـ)؟ لا تأخذ الأمور بعصبية..»

صحت أنا وقد صار إسكاتي معجزة:

- «أنا لا أملك جدًا اسمه (كتخدا) ولا (طومان) ولا (مراد أغا).. لقد كان أجدادي هم (شلاطة) و(زينهم) و(بيومي).. أراهن على أنهم ماتوا جميعًا جلدًا بالسياط.. وإنني لفخور بهذا..»

نظرة نارية اندلعت من عيني الأب.. لكنه تمالك أعصابه..

وبصوت ثلجي تساءل:

- «هل الأستاذ (هـ) إشتراكي إلى هذا الحد؟»
- «لا أدري.. كل ما أعرفه هو أنني لست تركيًا.. وقد توفي أبي الموظف في السكة الحديدية، وفي جيبه جنيهان هما ميراثي..»
ساد الصمت لبرهة.. وعرفت أنني سكبت دلوًا من الماء البارد فوق نيران السهرة..
ومالت (إيناس) لتهمس في أذني:
- «هل لابد أن تحتد هكذا؟ لقد أحرجتني كثيرًا.. ولم يطالبك أحد بالدفاع عن الفلاح المصري أو إثبات انتمائك للشعب...»
كانت على حق.. فهززت رأسي في قنوط وغمغمت:

- «الواقع انني لست على ما يرام.. متى يسمحون لنا بالنوم؟»
تطوعت هي بسؤال الأب الذي جلس ساهمًا، يتمنى أن يطردني، لكنّ أدب الضيافة يمنعه..
- «أين سننام يا سيدي؟»
بدا كأنما أفاق من كابوس.. فقال في عجلة:
- «آه! هذا حق.. إن منتصف الليل قد دنا... وأنتم سوف تسافرون بأول قطار.. إن (حسني) سيقودكم إلى غرفكم..»
وجاء الخادم العجوز يقودنا إلى الطابق الثاني من القصر، بعد ما تمنينا أمسية طيبة لمضيفنا..

تحاشيت النظر إليه.. كما تحاشيت النظر إلى الباب إياه.. والرواق الذي تعرفونه جيدًا..
ستنام (هويدا) و(الشمندوري) في أول غرفة بما أنهما زوجان.. وتنام (إيناس) و(غادة) في الحجرة الثانية.. (مها) ستنام في غرفتها القديمة.. أما (محيي) و(عبد الرحيم) فينامان في حجرة ثالثة.. يا سلام! ولماذا أبيت أنا وحدي؟
الإجابة معروفة.. لأن (محيي) و(عبد الرحيم) زميلا عمل ويرتاحان لبعضهما.. وكلاهما راغب في المبيت مع الآخر..
أما أنا فهما يلقياني للمرة الأولى.. ثم إنني لم أكن ودودًا طيلة اليوم، وأبديت عصبية بالغة جعلت الجميع لا يرحب بالبقاء معي

طويلًا.. كما أنهما ـ حتمًا ـ لا يرحبان بي شريكًا ثالثًا في حجرة النوم..

مرّة أخرى سأقضي ليلة (نابغية) محترمة.. فلو كان (النابغة) يعرفني؛ لاعتبر نفسه نزيلًا مرفهًا في فندق من ذي الخمسة النجوم..

والآن دعنى أصف الحجرة لك يا د. (رفعت)..

يمكنني أن أقلد (بلزاك) فأصف لك كل رسم على الجدار، وكل خدش في الأثاث.. ويمكنني أن أقلد (جرييه) فأقول لك إنها حجرة وكفى.. لكني سأكون وسطًا بين الاثنين..

هي حجرة مرعبة...

حجرة صالحة تمامًا لإحياء أجواء الرعب القوطي الغابرة..

الباب يحدث صريرًا مرعبًا، وكل الأبواب في قصص الرعب تحدث صريرًا.. كأن اختراع (التزييت) لم يصل إليها بعد..

أرضية الغرفة من الخشب العتيق المسوس الذي يحدث صريرًا بدوره، ويجسم صوت خطواتك.. وهذا سيئ...

الأسوأ من هذا هو السرير ذو الأعمدة العالية النحاسية، والذي يُمكنك أن تقسم إنّه شهد وفاة عدد لا بأس به من الأجداد.. وهو محاط بستائر حريريّة تتحرك حتى تكاد تقسم إن هناك من سينهض من الفراش حالًا.. وهذا سيئ جدًّا..

الأسوأ من هذا أن النافذة موصدة.. لكنّ خصاصها قد بليت وتساقط معظمها.. ومن خلالها ترى سجادة سوداء حالكة هي الليل.. الليل الملتصق بالنافذة.. وبصعوبة تنجح في إغلاق الزجاج لتمنع الريح الباردة من تجميدك... وهذا سيئ للغاية...

الأسوأ من هذا هو المرآة العتيقة التي تساقط طلاؤها.. والتي تحتل جدارًا كاملًا يستحيل معه أن تصدق أنّ هذه مرآة.. وطوال الوقت ترى - بطرف عينك ـ من يتحرك في ركن الغرفة.. فتجفل.. وسرعان ما تدرك أنّ هذا انعكاسك لا أكثر... وهذا سيئ بما لا يقاس...

الأسوأ من هذا كله هو تمثال يعلو رف المدفأة.. تمثال مخيف، يذكرني بصور

أصنام الجاهلية (يغوث) و(يعوق) و(نسرا) التي نراها في الأفلام الإسلامية.. تمثال لا يمت للفن ولا للجمال بصلة.. ولا أجد نفعًا له، سوى أن يكون حقًّا وثنًا عبده أحدهم في هذه الحجرة المشئومة يومًا ما.. وهذا سيئ إلى حد فلكي.. إنّه السوء نفسه..

هل أنت معي الآن في الحجرة؟

هل تستطيع تصوّر الموقف جيدًا؟

إذن لنبدأ الأمسية معًا...

❋ ❋ ❋

لو حاولنا أن نجمع خيوط القصة في قبضة واحدة؛ لأمكننا أن نتجاوز دور الراوي الذي يعيش الأحداث، لنأخذ دور

الراوي الذي يسردها - غير مشارك فيها - من موقع علوي.. يجعله يرى ويعرف كل شيء.. وهكذا يمكنني أن أصف لك بضعة مشاهد لم أرها.. لكني الآن أستطيع أن أصفها كما حدثت....

المشهد الأول: (إيناس) و(غادة) في حجرتهما..

(غادة) كفت عن الولولة وبدأت تتحدّث عن الرجال.. فهذا ظريف وهذا مهذب.. لكنهم - جميعًا - لا يقارنون بخطيبها (محيي) ذي القلب الذهبي والدعابة الحاضرة..

لابد أن (إيناس) كتمت ضحكتها.. أنا أعرف هذا التعبير على وجهها وأحبه كثيرًا..

ولابد أن (غادة) بدأت تتكلم عني..
لابد أنها سألت (إيناس) عن (كنهي).. عن سر عصبيتي البالغة وعدم اندماجي مع الحمقى الآخرين..
قالت لها (إيناس) إنني عصبي لكنّ قلبي طيب..
ولابد أن (غادة) سألتها عن جدوى كل هذا.. عن جدوى مصادقة رجل متزوج لا ينوى تطليق امرأته.. أليست هذه مضيعة للوقت؟ وماذا عن سمعتك يا حبيبتي؟ صداقة؟ لا توجد صداقة بين ذكر وأنثى.. وإن وجدت فهي كصداقة الأسد والحمار الوحشي.. جديرة بأن تعرض كفقرة في السيرك القومي..

ثم راحت تلك الثرثارة تتفقد الحجرة، وتقلب حشية السرير مرددة عبارات الحسد لـ (مها) على ثراء أهلها.. وذهبت إلى ركن النافذة تتفحص الستائر وخامتها بعين ناقدة جديرة بخبير مُثمن.. ومصمصت شفتيها تحسرًا...

وحين خلعت حزامها لم تجد مكانًا أفضل لتعليقه سوى.. سوى هذا التمثال القبيح الموضوع على رف المدفأة...

- «هؤلاء الأثرياء.. لهم ذوق غريب أحيانًا!»

❋ ❋ ❋

المشهد الثاني: (هويدا) وزوجها في حجرتهما..

يمكن القول دون جهد إن (هويدا) كانت في أسعد حالاتها.. وراحت تصف كم أن كل شيء رائع، وإن كانت تضايقت نوعًا من زوجها حين مد يده لـ (غادة) كي يعينها على مغادرة القارب، بعد النزهة النهرية التي قاموا بها..

- «لكنّها ضريبة الرجولة يا (هويدا).. الإتيكيت..»

- «دع هذه الضريبة لخطيبها كي يدفعها بدلًا منك..»

ومشت نحو المدفأة العتيقة تتأملها في انبهار.. وتوقفت عيناها عند التمثال المربع الموضوع فوقها.. فقالت مجفلة:

- «بسم الله الرحمن الرحيم.. كأنه من عالم المنحوس (رفعت إسما......)!»

- «عالم من؟»

- «لا.. لا شيء.. تذكرت حكاية قديمة..»

وأشرق وجهها وهي تنظر إليه محاولة جعله ينسى.

* * *

المشهد الثالث: الشابان (محيي) و(عبد الرحيم) في حجرتهما..

يتحدث (محيي) عن (غادة) في إفراط، وهو يدخن ويتأمل سقف الحجرة في هيام.. ومن حين لآخر يتوقف ويدندن لحنًا لإحدى أغنيات (عبد الحليم حافظ) وقد رسم علامات العذاب على وجهه:

- «بتلوموني ليه؟ إم م م م.. بتلوموني ليه؟ إرررررم!»

ثم ينسى الغناء ويواصل الكلام عنها.. وبعد دقائق:

- «أول مرة.. أول مراااااة!»

سأله (عبد الرحيم) وهو يفك رباط عنقه:

- «أنت تحبها حقًّا؟»



ومشت نحو المدفأة العتيقة تتأملها فى انبهار ..
وتوقفت عيناها عند التمثال المريع الموضوع فوقها ..

- «جدًّا.. جدًّا.. كما تحب أنت (مها)..»

غمغم (عبد الرحيم) وهو يحل أزرار قميصه.. ويتأمل وجهه في المرأة:

- «أنا لا أدري إن كنت أحبها أم لا.. إن هذا التراث العاطفي الذي نحمله جميعًا يجعلنا ملهوفين على الحب.. فما إن نلقي إنسانة تصلح قليلًا حتى نملأ الدنيا صراخًا وغناءً وشعرًا.. ولا نترك لأنفسنا فرصة كي نتريث ونسأل أنفسنا عن أي شيء..»

- «إن (مها) جديرة بأن تحب..»

- «نعم.. مع كل هذا الثراء.. إن من لا يحبّها هو مغفل أو مخبول.. لكني اليوم أشعر باهتزاز مريع في ثقتي بنفسي..»

- «الثقة بالنفس تأتي من كونها تميل إليك..»

- «هراء!»

قالها في عصبية، وقذف قميصه على طرف الفراش.. ثم استطرد:

- «ماذا أقدم لها؟ ماذا أملك؟ اليوم فقط شعرت بأنني تورطت في لعبة كنت أجهل قواعدها.. وها هي ذي الفتاة بسيطة الطبع والملمس التي عرفتها، تكشف عن وجهها، فإذا هو وجه الأرستقراطية التركية.. بارع الحسن.. المتعالي.. المستفز..»

ثم جلس على طرف الفراش.. وغمغم في مرارة:

- «إنني أتضاءل!»

كان هذا الحديث يدور بالتأكيد في تلك اللحظات التي تسبق النوم.. ولم يكن أحد الشابين يعرف أنه في دهاليز هذا القصر

يتحرك الشيء الذي سيحدد مصير حب كل منهما...

يا للسخف! كيف لو عرفا تفاهة ما يتكلمان عنه!

لكنهما كانا يعرفان شيئًا واحدًا على وجه اليقين: إن هذا التمثال الموضوع على رف المدفأة كريه جدًا.. ولا يثير أي ارتياح في النفس ولم يعرفا سببًا لهذا.....

* * *

المشهد الرابع: (مها) في حجرتها القديمة.. تجول في أرجائها وتتحسس الستائر في افتتان.. على شفتيها ابتسامة غامضة..

تنظر إلى ساعتها وتغمغم هامسة:

ـ «مازال الوقت مبكرًا جدًّا..»

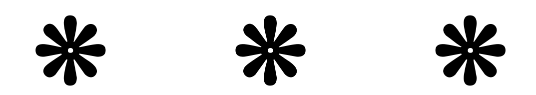
ثم تطفئ الضوء الكهربي، وتتسل إلى الفراش...

* * *

المشهد الخامس: ثمّة باب في الطابق الأرضي.. باب موصد يقود إلى ما يشبه الكرار القديم المنسي..

لو دققت النظر أكثر، واعتدت الظلام؛ لعرفت أن مقبض الباب يدور ببطء.. ولا يحدث الصرير المعتاد....

إن الباب ينفتح.. ولكن ليسمح بمرور أي شيء؟!



# ٤ - إنّه يحيا!

في حجرتي أتسلى بقراءة مجلة مصورة، ابتعتها صباح اليوم - أم هو الأمس - من الإسكندرية، ولم أجد الوقت الكافي لقراءتها:

لن أستطيع النوم.. ولن ألتمس له الأسباب.. إن هي إلا ليلة تمر طولًا أو عرضًا..

إنني أهاب النوم في مكان غريب.. أكره أن يأتي الخطر المبهم ليجدني راقدًا معدوم الحيلة غير مدرك لوجوده..

وأنا أكره هذا القصر.. وأعرف أنه يكرهني بالمثل....

❋ ❋ ❋

نهضت من جديد لأتأمل التمثال ـ شبيه (يعوق) - الموضوع على رف المدفأة، واستعدت من جديد الشعور بأنه مألوف لي.. هذا الشكل قد مر بي من قبل.. لكنّ أين؟

وهنا جاء الجواب سريعًا..

إنه (الجاثوم) ذاته!

بالتأكيد هو.. لقد كانت كوابيسي مبهمة دائمًا.. ولم أستطع قط تمييز ملامح (الجاثوم).. لكنني كنت أعرف أنه هو..

أما الآن فأتذكر هذه الملامح.. ولا شك لدي في هذا..

تمثال (جاثوم) في غرفة النوم؟ هذا غريب.. معنى هذا أنني لست واهمًا.. هذا القصر يحوي التفسير الكامل لكل ما مر بي..

أمسكت بالتمثال كمن يمسك أفعى.. كان ثقيلًا كالكابوس.. وكان من خامة حجرية لابد أنها (الشست)، وإن كانت معلوماتي الجيولوجية هي معلومات طالب في المدرسة الإعدادية..

وفوق قاعدته رأيت حروف لاتينية محفورة:

Incubus - R.J. Simpson

1803

بالتأكيد هو المثال الذي صنعه.. وبالتأكيد في عام ١٨٠٣م.. إنّه لأثر حقيقي إذن.. عمره يتجاوز قرنًا ونصفًا..

لكن الفضول حركني أكثر.. فأنا لا أهوى التماثيل.. على الأقل تلك المصنوعة من حجر (الشست)...

رفعت ذراعي وهويت بالتمثال على الأرض، ليتهشم إلى ١٦٤٧ قطعة.. أحدث ضوضاء لكنّها لم تغادر حجرتي حتمًا..

كان التمثال مصمتًا تقريبًا من الداخل.. لكنّ هناك تجويفًا صغيرًا في منطقة الصدر.. تجويفًا يسمح بدخول قطعة من النحاس تشبه الشريحة.. وحين أمسكت بالقطعة - وقلبي يرتجف - قرأت عليها كتابة باللغة اللاتينية.. مزيجًا من حروف

(الواو) و(السين) على غرار (كاستوس كوربوس إنكيوبوس نكرومانسوس)...
وبالطبع لم أفهم حرفًا...
لكن الأمر كله كان له مذاق مريع أعوذ بالله منه.. هذا الجو الشيطاني الأسود المتهجم...

* * *

الـ Incubus - هذا الكائن الافتراضي - يميل لمهاجمة النساء، ويجعلهن يعشن كوابيس مريعة.. أمّا الـ Succubus فمعادله الأنثوي.. ويتخذ صورة أنثى تهاجم الرجال وهم نائمون.. فتجثم فوق

صدورهم.. وتجعلهم يرون أشنع الكوابيس طرًا..

❋ ❋ ❋

الواحدة صباحًا.. مازال الصباح بعيدًا..

❋ ❋ ❋

الواحدة والربع صباحًا.. مازال الصباح بعيدًا..

❋ ❋ ❋

الواحدة والنصف صباحًا.. مازال الصباح بعيدًا..

* * *

الثانية إلا.. هه؟! هل سمعت هذا الصوت؟

صوت طويل رفيع متحشرج.. لا يمكن إلا أنّ يكون صراخًا.. صرخة امرأة على وجه اليقين.. والأسوأ أنها قادمة من ذات الطابق..

هرعت أفتح باب الحجرة.. أزيح المزلاج.. واختلست نظرة إلى الوراء فرأيت من يفر مبتعدًا.. لكن.. إنها صورتي في المرآة اللعينة!

فتحت الباب بمنامتي حافي القدمين..

وكان الرواق خارج الغرفة يعجّ بالبشر.. الجميع غادر حجرته ليرى ما يحدث.. (إيناس).. (عبد الرحيم).. (سعيد).. (هويدا).. (غادة).. الرجل يفركون عيونهم، والنساء يضممن أراوبهن على أجسادهن، وعيونهن ترسم علامات استفهام مريعة..

ومن مكان ما برز الأب.. ضخمًا مهيبًا صارمًا حتى في جلباب النوم.. ونظر لنا بعينين لا تريان.. وقال للاأحد:

ـ «الصرخة من غرفة (مها)!»

ثم اخترق صفوفنا قاصدًا بابًا في نهاية الرواق.. وقرع الخشب بحزم عدة مرات.. وبصوت آمر هتف:

- «(مها)! افتحي الباب..»

لا جواب..
- «(مها)! ماذا حدث؟»
لا جواب..
نظر نحونا بصرامة.. أشار إلى (عبد الرحيم) و(محيي) ليقتربا.. وقال في خطورة:
- «إنها توصد الباب من الداخل.. هلما اكسراه!»
ولم يجد الشابان وقتًا ليناقشا الأمر.. بل تراجعا إلى الوراء ثم اندفعا بكتفيهما القويتين.. و.. طاخ! لم يجد الباب هو الآخر وقتًا ليفهم.. لقد انفتح وتهشم المصراع وتدلى من الجانب، وغاب الشابان داخل الغرفة ليسقطا على الأرض بالتأكيد..

لكن الأب لم ينتظر.. خطا فوق جسديهما قاصدًا الفراش...

وتوقفنا نحن الرجال حياء خارج الحجرة، أمّا النسوة فهرعن يخطون فوق جسدي (عبد الرحيم) و(محيي) ليرين ما هناك..

مرت هنيهة.. ثم برز الأب بوجه مغلق ليذبنا بذراعيه بعيدًا:

- «لا شيء هنالك يا شباب.. لقد رأت كابوسًا.. عودوا لنومكم..»

وخرج (عبد الرحيم) و(محيي)، وتأخرت النساء قليلًا بالداخل..

بعد قليل خرجت (إيناس) من الحجرة.. وكنت أنتظرها على أحر من الجمر.. فما إن رأتني حتى هتفت في انبهار:

ـ «هذا غريب! لم أتصور أنك تخلع بذلتك حتى في أثناء النوم.. لا تبدو لي متحضرًا على الإطلاق بمنامتك..»
في سأم أجبتها:
ـ «كذلك أنت لا تبدين فاتنة جدًا بهذا الشعر المنكوش.. ولكن دعينا من هذا الهراء.. ما الذي يحدث بالداخل؟»
قالت لي إنهم وجدوا (مها) في الفراش...
كانت منبطحة على وجهها ترتجف.. ومن فمها المدفون في الوسادة تصاعد صوت نشيج..
مدت (إيناس) يدها إلى شعرها، وأجبرتها على الالتفات فالنهوض.. لكنّ الفتاة كانت في حال هستيرية غير معقولة..

- «إن النساء هن الهستيريا ذاتها..» - قالت (إيناس) في امتعاض - «.. وكلمة (هستيريا) نفسها مشتقة من كلمة (رحم) اللاتينية..»

قلت لها وقد نفد صبري:

- «.. أعرف أنك عبقرية.. ولكن أكملي القصة أرجوك..»

- «لا شيء.. قالت (مها) إنها رأت كابوسًا.. كان هناك شيء يخنقها ويمنع الهواء من دخول رئتيها.. وحين فتحت عينيها وجدت كائنًا مريعًا يجثم على صدرها.. إنها القصة التقليدية.. ما كان لها أن تلتهم كل هذه الأطنان من الفطير (المشلتت) في العشاء...»

- «و.. وهل هي بخير؟»

- «طبعًا.. ما إن صرخت حتى انتهى الكابوس.. لكنها ظلت تردد دون كلل: التمثال! التمثال! إن هذا (هـ)؟ هل أنت على ما يرام؟ لماذا شحب وجهك هكذا؟ هل أنت على وشك أن تقيء؟ ماذا دهاك؟»

* * *

وهكذا انفض الجمع..

ووضع الأب ذراعه يطوق كتف ابنته المرتجف؛ فقد اعتزم أن تمضي الليل معه في حجرته.. لن يطالبها أحد بأن تنام وحدها هذه الليلة..

كم أحسدها! لابد أنها استعادت ذكريات الطفولة الباسمة.. حين كنا ننهض صارخين في الظلام، فنجد من يعانقنا.. ويهدئ من روعنا بكلمات هامسة حانية.. ويلثم جبيننا بشفتين دافئتين.. ثم يحملنا لننام معه.. كيف يمكن أن تؤذينا كل شياطين الكون بعد هذا؟!

كم أحتاج أنا الرجل الناضج إلى من يفعل معي ذات الشيء!



وأجبرتها على الالتفات فالنهوض .. لكن الفتاة كانت
فى حالة هستيرية غير معقولة ..

لكن زمن تلقي الحنان قد ولّى.. على أن أعاني كل شيء وحدي.. على أن أقف وحيدًا في العواصف كجدار.. بل ـ تصوّر هذا ـ أنا مطالب بأن أعطي الحنان والحماية للآخرين!

حنين جارف نحو زوجتى تحرك في أعماقي حين عدت لحجرتي.. فهى - على الأقل - آخر من منحني هذا الحنان النفيس..

كنت قد نسيتها تمامًا.. حتى وجهها صرت أجد بعض المشقة في استرجاعه على الفور...

جلست في الحجرة، وأعدت تفقدها.. بالتأكيد كل شيء سليم وفي موضعه.. والنافذة موصدة قدر الإمكان، والمصراع

مغلق. فلتزأر العاصفة إذن.. فلتزأر العاصفة..

غدًا أطلب الزواج من (إيناس).. فإن قبلت كان طلاق بيني وبين زوجتي.. هذا هو الحل الأوحد... أنا أكره الخداع.. كمدرس رياضيات أعرف أن س + س لا تساوي إلا ٢س.. وأن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين.. وزوجتي تخلت عني...

(إيناس) لن تقبل امرأة أخرى في حياتي.. ولكن هل توافق حقًّا؟ النوم يحاول التسلل إلى عيني دون استئذان.. يقول كلامًا فارغًا ظاهره الصدق.. يقول إن الليل توغل.. يقول إنّه كان يومًا شاقًا.. يقول إن الكابوس لن يعاودني..

لكن لا..
لا تحاول خداعي.. لا تحاول إلقاء ذرات رملك السحرية في عيني..
لن أنام.. كل شيء سليم وفي موضعه.. يوجد خطأ ما في هذه العبارة.. هئ هئ! جنيه كامل لمن يجد أربعة أخطاء مع (علي فايق زغلول) هي هي! كل شيء سليم وفي موضعه..
يوجد خطأ ما.. هل حزرت ما هو؟
ولكن.. يا للمصيبة! لقد فهمت!!

*   *   *

## ٥ - لا أحب هذا..

ملحوظة من د. (رفعت إسماعيل):
أكره التدخل في سياق القصة؛ لكني أرجح أن ما أدركه (هـ) هو أن التمثال بحال طيبة! ألم يهشمه منذ قليل؟ ثم بعد هذا وجد الحجرة على ما يرام من ناحية الترتيب..
إن هذا يفوق قدرة المرء على التجلد دون ريب..

❋ ❋ ❋

عند هذه النقطة وثبت كالضفدع من الفراش.. هرعت نحو رف المدفأة حيث تربع ذلك التمثال القبيح يرمقني في ثبات مزعج! لم يعد بوسعي أن أزعم أن الصدفة هي ما يتوارى في دهاليز هذا القصر.. لقد هشمت التمثال بنفسي منذ نصف ساعة.. ووجدت النقش النحاسي إياه؛ والآن هو ذا سليم تمامًا كقلب رضيع..

هل أهشمه من جديد؟ لا.. سيكون هذا مملًا.. عدت إلى الفراش تحوطني الأعمدة النحاسية كشواهد القبور...

اصبر يا (هـ).. اصبر.. إنها ليلة ككل ليلة.. لن يستطيع الشيء أن يؤذيك ما دمت لن تغفو.. وما دمت لن تغادر الحجرة..

مشكلة أبطال قصص الرعب هي أنهم يتصرفون بتهور مستفز.. يصرّون - دون سبب واضح - على نزول القبو المليء بتوابيت مصاصي الدماء ليلًا.. ويصرون - برغم نذر الخطر - على ارتياد الغابة المظلمة وحدهم...

سأكون أنا أذكى منهم، وسأقبع في فراشي كمريض الدرن..

إنها الثانية والربع صباحًا...

❋ ❋ ❋

أستعير مرّة أخرى أسلوب الراوي الغائب.. الراوي على القدرة الذي يرى ويسمع كل شيء..

تعال ندخل معًا إلى حجرة الفتاتين (إيناس) و(غادة).. إنهما نائمتان في الفراش... كلا.. ليستا نائمتين..

إن (غادة) راقدة على ظهرها وقد عقدت ذراعيها خلف مؤخرة رأسها.. وقد راحت تتأمل الظلام شاخصة البصر.. وهي تثرثر بذلك الصوت الهامس المنهك المغري بالنعاس..

بالتأكيد تتحدّث عن (محيي)..

على حين ترقد (إيناس) على جنبها معطية ظهرها لصديقتها.. وقد سبقها النعاس وإن برمجت نفسها على إعطاء ردود متباعدة مدروسة على شكل همهمات، توحي لصاحبتها أنها تتابعها بشغف:

- «هم م! هم؟ هم م؟.. م م م!.. هم م؟»

كان الفراش مريحًا، واليوم طويلًا مرهقًا.. والدفء سلطان له القلب.. لهذا لم تقاوم طويلًا..

وبعد قليل تسلل النعاس إلى عيني جهاز الراديو المسمى (غادة)، فنامت بدورها..

كم من الوقت نامت (إيناس)؟ لا تدري حقًّا.. لكنها استيقظت على صوت الخطوات على أرض الحجرة الخشبية..

رفعت رأسها في خمول.. وتفقدت الهواء الأسود الذي يسود المكان.. لا شيء يتحرك.. إن الضوء الخافت القادم من الرواق يسمح بتبين حدود الأشياء..

عادت تدفن رأسها في الوسادة، وغابت عن الوجود لحظات، ثم سمعت صوت

الأنين.. صوت امرأة تكافح من أجل التنفس.. يخالطه صوت بكاء يائس...

أدارت وجهها نحو (غادة) فرأتها نائمة على ظهرها كما كانت.. وذراعاها معقودتان تحت رأسها..

لكنّ ظلًا كبيرًا كان يعلو جسدها.. ظلًا لم تتبين (إيناس) كنهه، لكنه لم يكن ذا شكل آدمي.. كان شيء ما يجثم فوق صدر (غادة) في هذه اللحظة!

مرت ثوان من محاولة فهم الموقف.. ثم البحث عن الصوت... فالصراخ.. الصراخ الذي يمكنه إيقاظ قتلى حرب (قادش) جميعًا..

* * *

وتكرر مشهد النهوض.. فالركض.. فالاحتشاد في الردهة..
وحين ظهر الأب هذه المرّة كان في يده مسدس ألماني ضخم.. وكان أحد الخفراء يهرع وراءه ملوحًا ببندقيته العتيقة..
لم نحتج إلى اقتحام الحجرة مرّة أخرى؛ لأن الباب كان مفتوحًا.. ومنه برزت (إيناس) وعلى وجهها أعتى إمارات الهلع..
صاحت وعيناها توشكان على الانفصال:
- «لقد فر! ألم تروه؟»
وأشارت إلى الطرف الآخر من الرواق..
كان الخفير عمليًا جدًّا.. لم ينتظر ليسألها

أسئلة سخيفة.. ما دامت تقول إنّه (فر) فهو شخص ما.. لص غالبًا..

وفي عينه المتسعة التمعت نظرة (حكومية) صارمة.. وارتجف شاربه الكث، وهو يركض في الاتجاه الذي أشارت إليه..

سألتها وأنا أمنع نفسي من احتضانها:

- «من هو؟ هل أنتما بخير..»

- «بخير.. بخير!» - وأخذت شهيقًا عميقًا - «.. كان يحاول خنق (غادة) في أثناء نومها.. لم يبد لي بشريًا.. لكنه الظلام..» - شهيق عميق آخر - «.. الظلام.. و.. حين صرخت انطلق كالبرق نحو باب الحجرة.. فتحها.. و... و....»

سألها (محيي) وهو يرتجف بدوره:

- «و.. و(غادة)؟»
- «بـ.. بخير.. إنها تبكي.. ظننت أنها رأت كابوسًا.. و...»
صاح متظاهرًا بالغضب، وهو يلوح بقبضته حيث توارى الخفير:
- «الوغد! لسوف أجده وأمزقه..»
لكنّ لسان حاله كان يرجونا ألا نتركه لحظة.. ولم أجد ما يمنع من مداعبته مداعبة قاسية.. فأشرت إلى الاتجاه المعني قائلًا:
- «اذهب من هنا! كن حذرًا.. لا تتهور فتقحم نفسك في جريمة قتل!»
لم يستطع أن يرفض.. فانطلق يركض في الاتجاه المقصود بساقين كعودين مسلوقين من المكرونة..

على حين دخل الأب الحجرة وتفقدها..
وفي هذه المرّة دخلنا معه لأن الأمر يتجاوز الحياء.. ولئن كان لا حياء في العلم فأنا أضيف أنه لا حياء في الرعب..
راح - بوجه صارم خطر - يتفقد أرجاء الغرفة.. ركع تحت الفراش.. انحنى ليتأمل المدفأة..
- «لا أفهم..» - قال شاردًا - «.. من أين دخل هذا الوغد؟»
قال (عبد الرحيم) وهو يستوثق من غلق النافذة:
- «من المدفأة حتمًا..»
داعب الأب شاربه مفكرًا.. وغمغم:
- «المدفأة مسدودة.. إنها مجرد ديكور..»
قالت (هويدا) وهي تشير إلى الفراش:

- «بالتأكيد كان كامنًا من البداية تحت الفراش..»

قال زوجها مؤمنًا وهو يرفع سروال منامته، الذي كاد الركض يسقطه:

- «.. من البداية.. أو ربما دخل حينما صرخت (مها)..»

- «هذا وارد.. فلم يُعنَ أحد بإغلاق حجرته..»

غمغم الأب متجهمًا وهو يتأمل السقف:

- «المشكلة هي: كيف مر من هؤلاء الكسالى الذين يحرسون القصر؟ وكيف صعد إلى هنا؟ إنني أتساءل عما إذا كان واحدًا منهم.. إن هذا وارد...»

قالت (إيناس) وهي ترفع يدها معترضة:

- «أكرر لكم.. لم يبد لي بشريًا على الإطلاق!»
- «ها نحن اولاء نعود للكلام الذي لا يجدي فتيلًا..»
قال (عبد الرحيم) محاولًا أن يعيد جو التعقل إلى الموجودين:
- «على كل حال.. لقد كررنا الخطأ ذاته.. وعلينا أن نتأكد الآن قبل دخول غرفنا أن أحدًا لا يختبئ تحت الفراش أو في المدفأة!»
- «هذا حق.. لقد نسينا واجب الحذر ثانية..»
ثم تصلب وغمغم في شرود:
- «نسينا شيئًا آخر.. لكني لا أذكر ما هو..»

هنا دوّت الصرخة الأنثوية المريعة من بعيد...

- «يا للهول! لقد نسيناها!»

- «(مها)!»

- «تركتها نائمة في الفراش منهكة.. وباب الغرفة مفتوح!»

وكما يحدث في أفلام الرسوم المتحركة؛ رأيتهم يركضون نحو مصدر الصرخة.. وقد تحولت أقدامهم إلى عجلات من فرط سرعتها..

لكنني لست أحمق كالآخرين..

لن نقضي الليل كله في تكرار الخطأ ذاته..

سأبقى أنا هنا لحماية (غادة) حتى يعودوا لي..

ونهضت من فوق طرف الفراش لأمشي نحو المرآة العملاقة وأتأمل صورتي فيها..

إنهم يتساءلون عن مصدر قدوم الجاثوم..

ما هي المشكلة؟ إن التجسدات الخوارقية لا تخضع لحدود الجدران..

لقد جاء الجاثوم عبر الجدار.. أو عبر لجين المرأة.. أو تجسد في هواء الحجرة دون مشاكل.. الآن أنا واثق من هذا..

لكنهم لا يعلمون.. يظنون كل هذا خاضعًا للمنطق..

* * *

وسمعت صوتهم عائدين؛ فوقفت على باب الحجرة أنتظر معرفة هذا الكابوس

الجديد الذي عاشته (مها)..
لكنهم كانوا أكثر هدوءًا.. وسمعت (عبد الرحيم) يردد:
- «فأر! كل هذا الصراخ من أجل فأر!»
قال الأب وهو يطوق كتفي ابنته بذراعه:
- «لقد كان باب الغرفة مفتوحًا.. وفجأة وجدت الفأر جوار رأسها على الوسادة.. إنها تجربة مروعة..»
قال (سيد الشمندوري) متظرفًا:
- «إن المرأة تخشى الفأر بنفس القدر الذي يخشى به الرجل المرأة!»
غمغم (عبد الرحيم) في سأم:
- «يا لها من ليلة! ليتها تنتهي..»
- «حتمًا ستنتهي..»

وتحرك الجمع يتفقد كل حجرة من الحجرات.. هذه غرفة الفتاتين.. لا شيء تحت الفراش أو في المدفأة.. هذه غرفة الزوجين.. سليمة تمامًا.. هذه غرفة الشابين.. لا بأس.. ثم غرفتي.. كل شيء مطمئن..

وسرعان ما انفتحت الأبواب وانغلقت.. ودوى صوت أربعة مزاليج توصد...

❋ ❋ ❋

كدت أعود لأتربع فوق الفراش، لولا أن سمعت صوت قدمين تهرولان في الخارج..

صوت محادثة.. أميز منها صوت (محيي) وصوت الأب الذي كان على باب حجرتي لم يبرحه بعد..

ثمّة شيء مقلق في نبرة الكلام...

اتجهت إلى الباب.. وفتحته..

كان (محيي) متجهم الوجه ممتقعه.. والأب يرمقه في ارتياب وعدم تصديق.. عندها رأياني..

قال الأب متحاشيًا النظر إليّ كأنه لم ينس غضبه بعد:

- «تعال معنا لنرى هذا..»

كان الكلام موجهًا لي.. لكنه خال من أدوات النداء.. خال من البدلات بعد (هذا).. كناية عن اشمئزازه مني.. وعدم

رغبته في إظهار أدنى قدر من الود تجاهي، حتى لو أملته قواعد اللغة..

سرت معهما لأرى (هذا).. ولم أنس ـ على سبيل الروتين ـ أن أغلق باب حجرتي ورائي..

كانا يهبطان في الدرج قاصدين الطابق السفلي.. لا بد ـ إذن ـ أن نهاية الرواق تقود إلى درج خلفي.. يقود بدوره إلى الطابق السفلي..

وتحاشيت النظر إلى الباب الشهير في القاعة الكبرى.. لم أحاول أن أرى ما إذا كان مواربًا أم لا..

فجأة سألت الأب (ولا أدري لماذا خطر لي السؤال):

ـ «ماذا يوجد تحت هذا القصر؟»

قال وهو يواصل السير خلف (محيي):
- «لا شيء.. شبكة ممرات معقدة جدًا.. إن المماليك الذين بنوه يومًا ما كانوا راغبين في وجود مخارج طوارئ عديدة..»
وكانت هناك غرفة قديمة.. غرفة كرار أو شيء من هذا القبيل.. الظلام يغمر هذا الركن من القاعة..
لكني رأيت شيئًا.. وانحنى الأب على ركبتيه يتفحّص ما وجده..
- «ما رأيك؟»
- «مثل رأيك...»
مدّ إصبعه وغمسه في الدم.. وتفحصه:
- «إنّه طري.. بالتأكيد تم هذا في الدقائق الماضية.. رباه! ما أكبرها بقعة! وها هي

ذي بندقيته.. إن (بسطويسي) لا يترك بندقيته أبدًا.. فهي جزء من شرفه.. أقسم إن مكروهًا قد حدث..»

قال (محيي) معترضًا:

- «لم نسمع صراخًا ولا طلقات.. ما كان هذا ليتم في صمت..»

- «ربما أن الأحمق جرح نفسه، وترك كل شيء ليجد ما يضمد به هذا الجرح..»

قلت أنا وقد استجمعت خيوط القصة:

- «كنا سنجد خيط الدم يتجه إلى القاعة.. أمّا هنا.. فإنني أرى الخيط يدخل الحجرة.. ليتوارى وراء الباب..»

كان ما قلته واضحًا..

- «ماذا يوجد ها هنا؟»

- «غرفة كرار.. إنها سلّة مهملات القصر..»

قالها وتعمد أن يلفظ (سلّة المهملات) بالفرنسية (بوبيل)، لأن لسانه يعف عن ذكر لفظة بذيئة كهذه..

قلت له وأنا أضغط على زر مفتاح النور الذي ينير هذا الجزء:

- «سنجد جثة (بسطويسي) بالداخل!»

- «فأل الله ولا فألك! أقتلت الرجل بهذه السرعة؟!»

لم أرد.. إنما أشرت لهما كي يتراجعا للوراء..

ومددت يدًا مرتجفة إلى مقبض الباب..

* * *

# ٦ ـ المزيد منه...

ولكن.. دعونا من هذا الموقف.. فهو يبدو خاليًا من التشويق في رأيي..

إن تتابع (فتح حجرة مظلمة بداخلها خطر مريع) لهو من أقدم التتابعات في قصص الرعب.. ولربما أثار هذا ملل القراء..

لنترك (هـ) الآن في محاولته لمعرفة ما يجري في الحجرة..

لنترك الخفير المختفي.. والأب المتوجس.. و(محيي) المذعور..

وتعالوا نتلصص على حجرة (هويدا) وزوجها..

* * *

لن يكون النوم سهلًا.. فـ (هويدا) ترتجف كورقة..
وفيما بعد عرف (هـ) أن لها خبرة مروعة مع لعنة الفراعنة، جلبها عليها خطيبها الأحمق السابق.. ولن تنسى أبدًا يوم وقفت مشدوهة في حجرتها الموصدة ترمق شيئًا ما يحاول فتح خصاص النافذة ليدخل!
تقول إن العسل والبصل أنقذاها منه.. لا بد أنّ هناك قصة مسلية بخصوص هذا الموضوع.. لكنّ الوقت لا يسمح بالاستقصاء..
(هويدا) ترتجف كورقة..

أما زوجها فقد أدار ظهره لها، وراح يغط في نعاس لذيذ، يقطعه من وقت لآخر بأن يلوك شفتيه متلمظًا.. وهي علامة الاستمتاع بالنوم كما نعلم..

تأملته في غل..

ليس مناسبًا ليكون فارس أحلام.. لكنه زوج وزوج يحبّها..، كان خطيبها السابق شديد القبح ـ كما حكت لي (إيناس) - لكنه كان يتمتع بمركز علمي مرموق، وكان واسع الخيال[2]..

لماذا فقدته؟ لم تعد تذكر الآن... لقد كان يحبّها بجنون.. لكنّ (إرادة النكد) حق لا ريب فيه مثل (إرادة الفشل) و(إرادة الموت).. و(إرادة النكد) هي الشيء السحري الذي يدفع المرء لإفساد سعادته

حين يكون سعيدًا.. ويدفع محبين متفاهمين إلى الشجار دون سبب أو لسبب لا يذكر..
أمها تفسر هذا بوجود (عمل شرير).. لكنّ خطيبها السابق هو من حدثها عن (إرادة النكد) هذه.. وقال لها إن لذة التعذب هي ما يدفع المرء لاختلاق (النكد) اختلاقًا..
الحق أنه علمها الكثير.. وبعد رحيله فقدت أكثر ثقافتها.. وعادت بيضاء العقل من غير سوء..
لكن (سيد الشمندوري) يختلف.. إنّه مرح جدًا محدود الثقافة يفتقر إلى الذكاء.. كله رضا عن نفسه وعن الكون.. باختصار هو زوج مثالي لمن تريد زوجًا لا أستاذ فلسفة..

أخيرا كفت عن الارتجاف..

راحت تتأمل الحجرة في فضول.. حجرة جميلة حقًّا وفاخرة.. لكنّها تثير هلعًا ما في قلبها..

متى يأتي الصباح؟ رفعت رأسها إلى أعلى تتأمل السقف المظلم.. النجفة العملاقة الفاخرة التي تكفي (بللورة) واحدة منها لإفلاس زوجها.. نجفة ملفوفة بإحكام في قماش (الكريتون) لمنع الغبار من إتلافها.. وإن تدلى مصباح صغير منها يكفي لإضاءة الحجرة.. و...

هذه البقعة السوداء العملاقة في السقف..

لماذا لم ترها من قبل؟ أتراه الماء يتسرب من حمام علوي؟ لا.. إن هذه البقعة.....

بقعة لها سمك! بقعة لها أطراف! بقعة تتحرك!
كلا.. ليست هذه بقعة سوداء.. لقد جعلها الظلام تخطئ التمييز..
إنها شيء حي! جسم عملاق يلتصق بالسقف كالبورص..
إنه هو! بالتأكيد هو!
كان فوق رأسيهما طيلة الوقت فلم يرياه..
والآن.. هذا الشيء يهوي من السقف.. يهوي فوقها هي بالتحديد...
وها هو ذا يجثم فوق أنفاسها فلا تقدر على الصراخ..

❋ ❋ ❋

أخيرا دوّت الصرخة..
لكنها صرخة رجل هذه المرّة..
واندفعنا كالمجانين من كل صوب قاصدين الغرفة التي سمعنا الصوت منها.. وعرفنا دون لأي أنها غرفة (الشمندوري) وزوجته..
طرقنا الباب مرارًا.. وكدنا نهشمه...
وفي النهاية انفتح عن وجه (الشمندوري).. الوجه الحازم المذعور.. والعرق يغمر جبينه...
- «ماذا حدث؟»
- «إنّه هو! لقد كان متشبثًا بالسقف!»
- «عم تتحدّث؟ عن بورص؟»



وها هو ذا يجثم فوق أنفاسها فلا تقدر على الصراخ ..

ـ «بل عن الشيء الذي رأته الفتاتان.. لقد صحوت من النوم لأجده يحاول خنق زوجتى!»

كدنا ندخل الغرفة.. لكنه سد الباب في إصرار بكتفه:

- «لا داعي.. إن زوجتي بالداخل.. والشيء ليس هنا.. لقد.. لقد هشم خصاص النافذة وفر منها..»

* * *

لم يعد هناك داع لأن يبقى أحد نائمًا في القصر..

اجتمعنا جميعًا في إحدى قاعات الجلوس بالطابق الثاني، وصحا الخدم، وأضيئت

الأنوار جميعًا، وارتدى أكثرنا ثياب الخروج..

قال (الشمندوري) وهو يحكم غلق روبه الصوفي حول جسده:

- «لا يُمكنك أبدًا معرفة كنة هذا الشيء.. إنّه أسود ويظهر في الظلام الدامس.. لكنّ يمكن القول إن له أطرافًا ورأسًا.. ربما هو أقرب إلى قرد عملاق.. لا أدري بالضبط..»

ارتجفت (إيناس) وهتفت وهي تجرع الشاي من قدحها:

- «أنا أيضًا ظفرت بذات الانطباع.. إنّه ضخم.. لكنه لا يتحرك بهذا البطء المتوقع من حجمه..»

كنت جالسًا جوار الأب.. فرأيته ينظر لي نظرة ذات معنى، ثم يميل برأسه ليهمس في أذني:

- «لا داعي لأن تخبرهم بما وجدناه في الكرار!»

قلت هامسًا وأنا أرمق شحمة أذنه الحمراء التي تشي بالصحة:

- «ربما كان من الحكمة أن يعرفوا ما ينتظرهم..»

- «لا داعي.. في الصباح سأنهي الأمر مع المركز.. فلا تثر هلعهم..»

سأل (عبد الرحيم) الأب، وهو يشعل لفافة تبغ (واضح أن الرعب العام جعله ينسى أنه كان يتحاشى التدخين أمام من سيصبح حماه):

- «هل هذا الشيء يظهر كثيرًا في القصر؟»
- «بل هي المرّة الأولى..»
- «ولماذا اختار هذه الليلة بالذات ليظهر؟»
- «هذا ما نحاول معرفته..»
كان الأب يعامل (عبد الرحيم) بتحفظ هو إلى (القرف) أقرب.. وأدركت من اللحظة الأولى أن الأب غير موافق على أن تتزوج ابنته هذا (الفلاح الخرسيس النرسيس).. لكنّ الفتاة متمسكة بفتاها.. والفتى ليس سيئًا إلى هذا الحد، ومن عائلة محترمة..
ربما هو أرقى (خرسيس نرسيس) يمكن العثور عليه اليوم.. ولو انتظر الأب حتى

يتقدم والي (الآستانة) للزواج من ابنته فلربما طال انتظاره نوعًا!

قال الأب بلهجة تقريرية وهو يجول بعينية القويتين في الحاضرين:

- «لقد جاء (الشيء) مع القادمين.. فهل من بينكم من يعرف عنه معلومة ما؟»

لم يرد أحد.. وتظاهرت أنا بالعثور على جسم غريب في قدح الشاي.. إلى أن قال الأب بذات اللهجة:

- «حسن.. إن الحكمة تقضي بأن نقضي السويعات الباقية من الليل هنا.. ودون أن ينام أحد..»

- «الرأي ما قلت..»

ثم إن (محيي) قرر أن يدلي بدلوه في الحديث.. وهذا النوع من البشر لا يحتمل

أن يتهم بالصمت أو أنه لا يملك ما يُقال:

ـ «من المؤكد لنا جميعًا أنّ هذا الشيء ليس لصًا.. بل هو ليس بشريًا أساسيًا..»

همهم الجميع موافقين.. فأردف في تردد:

- «هل تبحث عنه في الخارج؟»

ـ «كلا..» - قال الأب في حزم - «.. فالظلام مازال دامسًا والرؤية متعذرة.. وأنا لا أريد ضحايا آخرين..»

ووضع على المنضدة أمامه مسدّسه الألماني العملاق، ليكون في متناول يده.. ولاحظت (مها) أن (محيي) يضع على الأريكة بندقية خفير عتيقة.. عرفت ـ دون شك ـ أنها بندقية (بسطويسي).. ورفعت عينين متسائلتين نحو أبيها.. فبادلها نظرة مسكتة جعلتها لا تلقى أسئلة..

بعد قليل عاد ثلاثة من الخدم، وقال كبيرهم العجوز في أدب:.

- «كل شيء تمام يا سيدي.. القصر محكم الإغلاق..»

- «والحجرة التي كان بها الأستاذ (سيد)؟»

- «أحكمنا غلق النافذة والباب»

- «لا بأس.. والآن ليحضر الجميع كي يجلسوا هنا معنا..»

وبدأت الجلسة الطويلة..

الثالثة والنصف صباحًا..

ها نحن أولاء نقترب من (ساعة الذئب).. أشنع ساعات الليل.. لكنّ ماذا يمكن أن يحدث ونحن محتشدون هاهنا؟

أتراك تعرف ساعة الذئب يا د. (رفعت)؟ بالطبع لا.. وبرغم هذا تسمح لنفسك بالحديث عن عالم ما وراء الطبيعة والأشباح؛ كأنك عالم العلماء وفيلسوف الفلاسفة..

في ساعة الذئب يصير المرء في أوهن حالاته.. الأزمات الربوية تزداد.. النوبات القلبيّة تكثر.. وفي هذه الساعة تبدأ غيبوبة نقص السكر.. ويغدو الجسد الإنساني هشًا مباحًا لأي اعتداء مادي أو معنوي أو شيطاني..

دعانا الأب لصلاة الفجر.. فنهضنا.. ولم يرغب أحدنا في الانفراد وقت الوضوء، لهذا توضأنا جميعًا في ذات الوقت في

حمام جانبي أنيق.. وعلى سجادة فاخرة مكتنزة وقفنا نصلي..
كانت فرصة ذهبية لأن بيننا من كاد يجن رغبة في دخول الحمام لكنه كان يخشى الذهاب وحده.. ويخجل من طلب من يرافقه إلى هناك..
بعد لحظات أنقطع التيار الكهربي!
أطلقت النساء صرخة رعب.. وبعد ثوان رأينا اللهب يتألق من عود ثقاب أشعله (عبد الرحيم).. فبدت الوجوه حوله كوجوه أشباح..
وبصوت رزين قال الأب:
- «لا مشاكل.. هذا يحدث كثيرًا.. هات الشمعدان يا (سليمان)..»

أحضر (سليمان) الشمعدان الفضي إياه.. وكان (عبد الرحيم) قد أشعل عود ثقابه الثالث.. فراح يمرّ به على الشموع حتى أضاءت جميعًا..

- «هات (الكلوب) كذلك..»

وجاء (الكلوب) وأشاع ضوءًا لا بأس به مع صوته المحبب للنفس.. حتى ذكرني بباعة البطيخ الساهرين للصباح جواره...

- «اذهبا لتريا ماكينة النور.. لعلها قد توقفت»

قالها الأب لخادمين.. ثم استرخى في جلسته، وراح يتأمل وجوهنا التي جعلها هذا الجو الدرامي وجوه الموتى..

مرت هنيهة من الصمت...

لا شيء سوى دقات الساعة الثمينة المعلقة في مكان مميّز من القاعة.. تلك الساعات التي لا يعلقونها إلا لإثارة الهلع في الأفئدة، وإحداث جو من الترقب الذي لا يحتمل..

فجأة سمعنا صرختين مرعبتين متحشرجتين قادمتين من الخارج.. وثبنا جميعًا كالبراغيث في الهواء.. إلا الأب الذي بقي محتفظًا بوقار جلسته.. ورفع يده في حزم ليمنعنا من الحركة:

- «ابقوا حيث أنتم!..»

- «لكنّ هذا الصراخ..»

- «بالتأكيد صراخهما - صراخ الخادمين - كنت أتوقعه وأنتظره..»

- «لكنّ ما معناه؟»

ـ «لقد ظفر بهما!»

- «يا للهول! إذن هو.....»

ـ «نعم.. إنّه يحاصر القصر من الداخل والخارج.. وأراهن على أنه هو المسئول عن انقطاع الكهرباء..»

ومط عنقه للأمام.. وفي خطورة أردف:

ـ «إنّه ينوي إنهاء الأمر هذه الليلة!»

❋ ❋ ❋

# ٧ - الجاثوم..

هل ما زلت معي يا د. (رفعت)؟

الظلام الدامس يعم القصر، وضوءا الكلوب مع الشمعدان يحاولان تبديد هذا الديجور...

بينما تسعة أشخاص يجلسون في قاعة الجلوس الواسعة، بأثاثها الفخم الذي يشي بعراقة الماضي.. لن أدهش لحظة لو قيل لي إن (بونابرت) تمدد على هذه الأريكة يبكي هزيمته في (واترلو)..

التسعة يملؤهم الرعب.. بينهم اثنان فقط يعلمان على وجه اليقين معنى ما يحدث..

أنا.. والأب الذي بدأت أتوجس منه...
تساءل (عبد الرحيم) في عدم فهم:
- «من الذي تتحدّث عنه؟»
- «الجاثوم!»
انتفضت من مقعدي.. فلا أحد سواء يعرف بوجود الجاثوم.. ثم إن الإسم نفسه محاولة غير شائعة لترجمة لفظة Incubus اللاتينية.. ولو لم ألق الجاثوم مرارًا في كوابيسي، لما علمت بوجود هذا الاسم...
إن هذا الأب يعرف الكثير حقًّا....
لم يظهر أحد علامة دهشة أو حيرة أكثر..
فقال الأب وهو يصب بعض الشاي في قدحه:

- «قبل أن نناقش المصير دعوني أحك لكم قصة مسلية.. القصة حدثت في القرون الوسطى في (أرمينيا)..»

وأشار إلى (مها) كي تدنو لتجلس على الأريكة بجواره، وطوقها بذراعه ليشعرها بالأمان.. كان جو الرعب السائد قد أزال الكثير من الشكليات الحساسية.. فهأنذا جالس جوار (إيناس) وقد تعانقت كفانا.. كفها الباردة ترتجف كهر رضيع في كفي.. (محيي) كذلك جلس جوار (غادة) وأمسك بكفيها معًا..

قال الأب بتؤدة، وهو يرشف الشاي من قدحه، ممسكًا القدح والطبق ككتلة واحدة بيمناه:

- «... كان هناك رجل يدعى (إسماعيلوف).. رزقه الله بطفل جميل سمّاه (ناصير).، ولقد مضت الحياة بشكلٍ جيّد حتى جاءت هجمة المغول على سهول آسيا الوسطى.. وكان أن سقط الطفل في الأسر.. لم يكن آسره رجلًا رديئًا.. ولم يبعه عبدًا على الفور.. بل علّمه الكثير من الأشياء.. ومن ضمنها علّمه فنًا كاد أن يندثر.. فنًا من فنون المغول القديمة.. من الصعب وصفه.. لكنّ يمكن القول إنّه لون من السحر الأسود.. سحر أسود قائم على تمزيق جثث الموتى لمعرفة أسرارهم.. إنهم يسمون هذا الفن Necromancy لكني لا أعرف كيف أترجمه للعربية إلا بعبارة (تمزيق الموتى)..»

للمرة الأولى تدخلت في المحادثة.. وهتفت:

- «هو كذلك.. (نكرو + مانسي).. باللاتينية..»

كان الكلام مألوفًا لي.. وعرفت أن اللغز الذي أنا بصدده قد بدأ يتضح.. سأعرف سر عذابي طيلة الشهور الماضية..

واصل الأب سرد قصته للوجوه الممتقعة حوله:

- «حين يمتص الساحر عيني الميت يرى كل ما رآه.. وحين يمزق لسانه يتعلم لغته.. وإذ يلتهم مخه يعرف كل ما عرفه..»

- «يا للبشاعة!»

قالتها (غادة) وهي تداري وجهها في كتف (محيي)، الذي قال في ضيق وهو يربّت على شعرها:

- «ما لزوم هذا الكلام الآن؟ ألا يوجد موضوع أكثر تسلـ..؟»

- «اصبر يا أستاذ (محيي).. لا تقاطعني.. أردت القول إن (النكرومانسي) - إذ يمزق مئات الجثث من كل البلدان -



لكن يمكن القول إنه لون من السحر الأسود . .
سحر أسود قائم على تمزيق جثث الموتى لمعرفة أسرارهم . .

يتعلم كل شيء، ويزداد حكمة.. يعرف مواضع الكنوز المدفونة.. وأسرار الأمم الغابرة.. وخبايا القلوب.. الخلاصة ـ لأكون موجزًا ـ هي أن الطفل صار شابًا يافعًا.. وخبيرًا في فنون (النكرومانسي).. كان هذا حين بيع - بعد وفاة سيده ـ إلى تاجر باعه في مصر.. وسرعان ما انضم الصبي إلى طبقة المماليك.. المحاربين القادمين من وسط آسيا ليتم تعليمهم فنون السيف.. وتربيتهم تربية صحية دقيقة؛ من ثم يغدون جنودًا أقوياء مهيئين للقتال.. وكان سهلًا أن تتكون منهم طبقة خاصة تحكم الشعب المصري على استعلاء.. صحيح أن (قطز) و(بيبرس) كانا مملوكين، إلا أنّ أكثر هذه الطبقة كان وبالًا

على الشعب المصري، وقد استطاع (نابليون) و(محمد علي) أن يقضيا على هذه الطبقة تمامًا فلم تقم لها قائمة[3]..»

وأردف قائلًا:

- «نعود إلى صبينا الذي جاء إلى مصر حيث تعلم أسرار القتال والسيف، ولم يكن يتحدث العربيّة، لكنه حاول تعلمها..، ولم يكف عن ممارسة (النكرومانسي) الذي علّمه كثيرًا من أسرار الفراعنة والرومان..»

«كبر الفتى وصار مملوكًا تقليديًا.. وكان العامة يسموّنه (ناصر).. لكنه اتخذ لنفسه اسمًا يليق به هو (عز الدين طومان).. وأبلى بلاءً حسنًا في القتال وبدأ يزداد ثراء.. ثم تزوج.. وابتاع بيتًا فاخرًا في

الوجه البحري، وامتلك بضعة فدادين لا بأس بها أبدًا.. ولم ينس أن يعلم ابنه الأكبر ذلك الفن الرهيب (النكرومانسي)... هذا الابن الأكبر هو من صار جد (كتخدا طومان)..»

«كان (كتخدا طومان) رجلًا شريرًا غليظ القلب.. وكان يكره الفلاحين، والفلاحون يهابونه.. ولم يكف عن ممارسة (النكرومانسي) في أقبية داره حيث كان يكدّس الجثث ويستجوبها..، وكان هناك سر يثير شغفه بشدة هو الكابوس الحيّ: الجاثوم.. لقد تعلم السر من مومياء كاهن فرعوني من كهنة (أمنمحات).. وطبقًا لهذا السر يُمكنك أن ترسل وحشًا مريعًا إلى

أعدائك ليجثم فوق صدورهم في أثناء نومهم ويخنقهم..»

«ويمكننا القول إن (طومان) قد نجح في تحقيق غرضه.. إن كل أعدائه ماتوا وهم نيام... لقد حرر الجاثوم من أسره وجعله عبدًا خاضعًا له.. حارسًا شخصيًا لا يقهر ولا يرتشي..»

«وفي اليوم الذي رزق فيه بطفله الأول (جمال الدين) - (جمازتدين) كما كانوا سيسمونه في (أرمينيا) - تلقى دعوة إلى العشاء في قلعة (محمد علي).. وكان حشد من المماليك مدعوًا إلى هناك[4].. حسن.. لا داعي لسرد القصة.. فمذبحة القلعة معروفة لكل طالب في الصف الإعدادي.. ولا داعي لأن أقول إن (طومان) تلقى ثلاثين

طلقة ولم يمت.. فحمله الجند إلى الوالي الذي ذبحه بسكين الفاكهة.. وهكذا تنتهي القصة.. وبيت (طومان) الفاخر سقط في يد العثمانيين الذين باعوه لجدي النازح من (الآستانة)..»

وصمت هنيهة.. ثم رفع إصبعين من كفه ليشير إليهما:

- «هنا يبرز سؤالان مهمان: ماذا حدث لزوجة (طومان) وولده؟ وأين ذهب الجاثوم؟ إن ما لديَّ من وثائق يقول إن الزوجة فرت إلى الصعيد وتزوجت هناك.. وذابت في زحام المصريين.. والولد كبر وتزوج.. وفيما بعد نزح ابنه إلى القاهرة.. وهو بالمناسبة يجهل كل شيء عن تاريخ أسرته..»

هنا تساءلت (هويدا) في هلع:
- «هل تعني أنّ هذا (النك..).. (النكرو....)»
- «(النكرومانسي)..»
- «هل تعني أنه كان يمارس هاهنا؟»
- «حتمًا.. في الأقبية السفلى.. إن هناك دلائل تشير إلى هذا..»
- «أ.. ألا يثير هذا ذعرك؟»
- «ولمه؟ هذا قصر جدودي... وأعتقد أن قرنين من الزمن كافيان لتطهيره.. لا بد أنّ هناك فظائع جرت على كل شبر من الأرض التي نمشي فوقها.. لكننا لا نعلم أو نتظاهر بعدم العلم..»
ثم مط عنقه إلى الأمام، فبدا في ضوء الشموع كثعبان عجوز يتلصص، وتساءل:

- «هل من أسئلة؟ لا؟ حسن.. والآن دعونا نر صورة زيتية قديمة لـ (كتخدا طومان).. إنها في ألبوم صوري..»
وأشار إلى (مها) فنهضت تحضر ذلك الألبوم القديم الذي كانت تتفاخر به في بداية الأمسية..
- «شكرًا يا (مها).. والآن اقتربوا أكثر لتروا ما أعنيه..»
زحفنا دانين منه كالأرانب التي تمط أنوفها متشممة أقدام غريب.. وعلى ضوء الشموع المتراقص تبينا صورة تمثل أحد لابسي العمامة كثي اللحية.. صورة رجل غير مصري وغير عربي عمومًا.. أقرب إلى الصور التي نراها لـ (محمد علي) في كتب التاريخ المدرسية..

كانت نسخة فوتوغرافية لصورة زيتية، وإن كانت الصورة الفوتوغرافية ذاتها عتيقة جدًا؛ تنتمي الزمن كانت الكاميرا تسمى فيه (الفوتوغرافيا)... وكانت فكرة الاستعاضة عن ألواح الزجاج بفيلم من (السليولويد) هي نوع من الهرطقة الفكرية..

- «هل ترون هذا الوجه؟»

ثم مد إصبعًا يداري به العمامة.. وإصبعًا يداري به اللحية..

- «هل الشبه أقرب هكذا؟»

قالها المجتمعون وقد حاولوا التركيز قدر جهدهم.. ومالت (غادة) برأسها زاوية قائمة محاولة أن ترى أفضل...

قال الأب دون أن يقنط:

- «أما زال الأمر عسيرًا؟ إن العرق دساس.. هذا مؤكد.. ألا تميزون هذا الأنف.. وهذين الحاجبين؟.. ألا تميزون هذا الثغر الصارم؟»

قال (الشمندوري) في ملل:

- «ليكن.. ماذا تريد قوله؟»

- «أريد أن أقول أن (كتخدا طومان) هو الجد الأكبر لواحد من الجالسين هنا.. واحد عاد لقصر جده بعد أعوام طوال، وهو لا يعرف شيئًا عنه.. واحد يتشدق بأجداده الفلاحين ولا يعرف أن جده وافد على هذه الأرض من (أرمينيا).. واحد يعرف الآن أنني أتحدث عنه.. وقد فهم كل شيء قبلكم..»

والتقت ثمانية أزواج من العيون على وجهي..

وسمعت الأب يتساءل في تؤدة:

ـ «أليس كذلك يا أستاذ (هـ)؟»

* * *

## ٨ - *التفسير..*

اعتادوا أن يسموا مصر (البوتقة التي ذاب فيها الوافدون عليها.. وانصهروا).. أمّا أنا فأعتبرها خلاطًا للعصير.. أنت تضع في الخلاط السكر والماء والليمون.. فتحصل على سائل يُدعى (الليمونادة).. وحين تتفحص قطرة من (الليمونادة) يستحيل عليك أن تعرف ما إذا كان أصلها سكرًا أم ليمونًا أم ماءً..

كيف كان لي أن أعرف أنني ممن ذابوا في البوتقة.. وداروا في الخلاط وسط دواماته المجنونة؟!

*   *   *

كان على أن أتكلم.. فقلت باستخفاف:

- «كل هذا جميل... لكنه قائم على الحدس ويستحيل إثباته.. إن الشبه بيني وبين الصورة لا يزيد على الشبه بيني وبين (سعاد حسني)..»

قالت (إيناس) بلهجة التعقل:

- «الواقع أن الصورة تشبهك حقًّا يا (هـ).. تشبهك كثيرًا..»

- «وحتّى لو كان هذا صحيحًا.. فما جدواه هاهنا؟»

قال الأب وهو ينحي ألبوم الصور جانبًا:

- «هذا هو بيت القصيد.. الحفيد الحيّ لـ (كتخدا طومان) هاهنا.. وفي ذات الليلة

تحدث أشياء غير عادية.. إن كل هذا يشير إلى شيء مؤكد.. إن القصر ينتظرك...»

قلت في عصبية وقد اتخذت برغمي موقف المدافع عن نفسه:

- «ولماذا ينتظرني؟»

- «يا له من سؤال!! للانتقام طبعًا! إن جدك حرر الجاثوم من معقله وجعله عبدًا خاضعًا له.. بعد كل هذه الأعوام ظل الجاثوم هائمًا كشبح.. عاجزًا عن العودة إلى حيث جاء.. عاجزًا عن الفعل.. كان بحاجة إلى قدومك كي يفنيك.. وبعدها يغدو حرًا!»

- «ومن قال لك هذا الكلام الفارغ؟»

حك أرنبة أنفه في إنهاك.. وقال:

- «الجاثوم قال لي!»

- «هل هو معتاد السهر هنا معك؟»
قال وهو يضع ساقًا على ساق:
- «ليس بهذا المعنى الحرفي.. أنت تعرف مثلما أعرف أن الجاثوم كائن مزيج من الحلم والحقيقة.. إن الكوابيس هي مملكته الصارمة التي يعرف كل شبر فيها.. وقد رأيت في الكابوس كل شيء.. كل شيء.. ووجدتني تحت ضغط نفسي هائل يرغمني على أن..»
ثم نظر إلى (مها) المحتمية به كعصفور جريح.. وأردف:
- «على أن أدعو أصدقاء (مها) إلى قصري!»
نهضت واقفًا.. وأشرت إليه في عصبية:

- «إذن أنت جزء من هذا الفخ.. لم تكن هذه دعوة بل كانت كمينًا!»

- «هو ما تقول.. كمين.. لكني كنت مرغمًا عليه.. لست أنت (المسيح) ولست أنا (يهوذا).. فلا تندمج في هذه المسرحية.. ثم إن هناك آخرين زارهم الجاثوم ودعاهم إلى اقتيادك ها هنا..»

ونظر برفق إلى (مها).. وسألها:

- «أليس كذلك يا (مها)؟»

قالت (مها) وهي ترتجف:

- «بلى.. أمرني في المنام أن أدعو (إيناس) وصديقها!»

التفت الأب إلى (إيناس) وسألها كأنما يؤدي دورًا مرسومًا:

- «وأنت يا (إيناس)؟»

قالت (إيناس) محاولة تحاشي نظراتي:
ـ «نعم.. لا أدري حقًّا ما دهاني.. شعرت بحاجة ملحة إلى دخول السينما لمشاهدة فيلم (الرقص على الهيدروجين).. لست معتادة الحديث مع الغرباء لكني وجدت نفسي أثرثر مع الجالس جواري!»
صحت في هلع وأنا أضرب الأرض بقدمي:
- «حتى أنت يا (إيناس)؟ حتى أنت؟!»
ـ «إهدأ يا (هـ).. لا يوجد (يهوذا) بيننا كما قلنا لك.. كنا جميعًا نتحرك دون أن نعرف لماذا نفعل ذلك..»
ثم أردفت وهي مصرة على تحاشى نظراتي:

- «ثم.. ألم يجل بخاطرك أن الطبيب النفسي زاره في المنام من يدعوه إلى أن ينصحك بالسفر للإسكندرية؟»

وأضاف الأب وهو يثبت عينيه في:

- «لقد قمت بفحص السيارة بنفسي.. ووجدت جزءًا مهمًا تم إتلافه عمدًا في الموتور.. أظن أن السائق رأى شيئًا ما في الحلم ليلة أمس!»

- «... وماكينة النور.. إن المصادفات لا تحدث بهذا السخاء»

صرخت في جنون وأنا على وشك التحول إلى مجذوب حقيقي:

- «إلى هذا الحد؟ مستحيل! إن هذا كابوس... بل هو أسوأ من أي كابوس رأيته..»

وهرعت لأمسك بمعصم (إيناس) في قسوة، لكنّها لم تبد مقاومة:

- «إذن لم يكن هذا حبًا؟»

قالت متهانفة والدمع يغمر وجهها:

- «إلا هذا.. لقد أحببتك حقًّا والله على هذا شهيد..»

هتف الأب بصرامة:

- «لا داعي للغلظة يا (طومان)!»

(طومان)؟ أنا (طومان)؟ يصعب عليّ ابتلاع هذا الاسم..

أردف الأب:

- «لم يكن هناك من يبغي الإضرار بك.. كل واحد فينا وجد نفسه مدفوعًا لعمل صغير بريء.. لكنّ هذه الأعمال الصغيرة

البريئة احتشدت في نسيج واحد كبير.. هو اقتيادك إلى الفخ بكامل إرادتك..»

- «حقًّا.. إن هذا الوغد يخطط جيدًا!»

- «والآن.. هذا القصر كله تحت سيطرة الجاثوم.. أنتم جميعًا رأيتم تمثاله على رف مدفأة كل منكم.. لم أستطع أنا ولا سواي الخلاص من هذه التماثيل.. إن لها لخاصية غير عادية.. ما إن تهشمها حتى تعيد تشكيل نفسها.. وقد نحتها فنان إنجليزي يُدعى (سمبسون) لمالك القصر منذ أعوام طوال، تخليدًا للرعب الذي يحكم هذا المكان..»

بعد برهة من الوقت لم تعد ساقاي تتحملان.. كان كل هذا يفوق تحمل جهاز العصبي.. فجلست على الأريكة.. ثمّة

رجفة لا أستطيع إيقافها في ركبتي اليسرى.. أمسكتها بمجمع كفي كي أسكتها..

وبصوت مبحوح تساءلت:

- «لماذا أنا بالذات؟»

- «لماذا أي شيء؟»

- «لـ.. لماذا اختارني؟ لم يمرّ جدّ من أجدادي بتجربة كهذه..»

- «لأنك لا تنجب.. ولن تنجب.. وهذا معناه أنك آخر سلالة (طومان) على وجه الأرض.. إنها فرصته الأخيرة للانتقام قبل أن تموت ميتة عادية باسمة لو كان هناك شيء كهذا..»

رفعت عيني إلى الوجوه الثمانية المحملقة فيّ.. وتساءلت:

- «حسن.. والآن ما هو المطلوب مني؟»

* * *

قال الأب:

- «لا يوجد شيء مطلوب منك.. إن (الجاثوم) يريدك أنت.. أمّا نحن فمجموعة من المتفرجين بلا دور.. وجودنا جوارك خطر داهم علينا.. أمّا ابتعادنا عنك فآمن لأن (الجاثوم) يبحث عنك وحدك.. سنرحل الآن.. نخرج إلى العراء ونتحسس طريقنا باحثين عن دار فلاح يقبل استضافتنا.. إن النهار قريب.. وليس من العسير أن نظل أحياء حتى يتبين الخيط الأبيض من الأسود..

«لكنك لن تتبعنا يا (هـ).. ستبقى هاهنا.. ولسوف يبقى (الجاثوم) معك لأنّه لا يعبأ بنا.. لو حاولت أن تأتي معنا بالقوة سأمنعك بمسدسي.. ولن أتورع عن تفجير رأسك.. هل أبدو مازحًا؟

«القصر قصرك.. وهذه ليست مجاملة.. إنّه بيت جدك المملوك الذي شيد كل حجر فيه.. كل غرفة هنا تخصك.. يُمكنك فتحها أو غلقها.. لديك مخزون كبير من المشروبات والمأكولات.. فلا تدع الحياء يقتلك جوعًا أو ظمأً..

«استخدم عقلك.. وحاول أن تسترجع من خلايا مخك القديمة أسرار جدودك.. وكيف كان المملوك الأرميني يستطيع السيطرة على وحش كهذا..»

ثم التفت إلى المجموعة المحيطة به.. وهتف:

- «هيا يا أبنائي! ولسوف نعود هاهنا مساء غد..»

كانت هناك بعض الغوغائية.. فقد راح (الشمندوري) وزوجته يعترضان في عصبية.. وقالت (هويدا):

- «لن نتركه هنا.. إنّه منا..»

وقال زوجها:

- «هذا حق.. القصة كلها خرافة..»

قال الأب في حزم، وهو يتجه إلى الباب بتؤدة والشمعدان في يده:

- «كما تريدان.. من شاء البقاء فليبق.. لا إرغام هنا..»

ووراءه مشي (عبد الرحيم) و(مها) و(محيي).. بقعة اللهب ترسم أربعة ظلال عملاقة مبتعدة على الأرض..

تبادلت (هويدا) وزوجها النظرات.. ثم - دون كلمة أخرى - تخليا عن شجاعتهما.. فهرعا يلحقان بالموكب المبتعد..

كانت (إيناس) جالسة جوار (الكلوب) المتأجج.. ومازالت كفها اليمنى على خدها، وقد جفت الدموع لكنّها تركت أخاديد من الملح على وجنتيها..

نظرت لوجهها الذي أظلم نصفه والتهب نصفه.. وسألتها:

- «وأنت؟ ألن تلحقى بهم؟»

- «.............»

- «إن اجتماعهم قوة..»

عيناها صارتا ذهبيتين تمامًا في اللهب.. وقالت في تراخ:

- «لا.. أنا باقية معك..»

- «إن الخطر سيكون جسيمًا.. خطرًا يفوق الوصف..»

- «الخطر الذي يفوق الوصف هو أن أسمع صراخك.. وأنا آمنة على بعد نصف كيلومتر من هنا..»

نهضت متثاقلًا لأجلس جوارها..

أنفاسي تتلاحق متقطعة قصيرة.. وشعرت بأناملها تتحسس وجهي..

- «أنت تبكي يا حبيبي؟»

- «نـ.. نعم.. أنا.. أنا خائف.. خائف من الظلام!»

وانفجرت باكيًا..

لا أدري ما قالته لي ولا ما فعلته.. كل ما أذكره أنني تحولت إلى طفل كبير تهدهده أمّه وتخبره أن الغد أفضل..

وحين انتهت عاصفة الدمع كنت قد صرت أقوى..

قالت لي وهي تمسك كفي في حزم:

- «هلمّ.. لا شيء يرغمنا على البقاء هنا سوى كلام هذا الإقطاعي المخبول.. فلنغادر المكان..»

- «لكنّ الـ.. الجاثوم......»

- «لو كان حقيقة فهو سيجدنا في جميع الحالات.. سواء هنا أو في طريق الهروب..»

- «(إيناس)..»

- «نعم..»

- «أنا أحبك..»
- «وأنا شرحه.. لكنّ الوقت غير مناسب لتمثيل فيلم (الشموع السوداء).. وبالمناسبة لم أر مشهد حب على ضوء (كلوب) في حياتي..»
- «هل تتزوجينني؟»
قالت في مرح عصبي وهي تتحاشي عيني:
- «اسمع.. أنت الآن مضطرب نفسيًا.. وقراراتك ليست قراراتك.. فيما بعد حين تتحسن الأمور يمكننا أن نناقش هذا..»
- «أنا لا أنجب..»
- «لم أطلب تقريرًا صحيًا عنك.. هلمّ نغادر المكان قبل فوات الأوان.. ليت النهار يأتي..»

- «إن ليل الشتاء طويل كمعلقات الجاهلية..»
وحملت الكلوب في يدي.. وتشبثت هي بذراعي الأيسر.. ورحنا في تؤدة نمشي.. بقعة من الضوء تبحث عن مخرج..
ولم نشأ أن ننظر إلى الوراء.. إلى حيث كنا جالسين...
آخر أحفاد (كتخدا طومان) يحاول الفرار بأي ثمن من قصر أجداده..
..............

❋ ❋ ❋



وحمَلْت الكلوب في يدى . وتشبثت هى بذراعى الأيسر . .

# ٩ - في المصيدة..

هي ذي المسيرة الكئيبة تتجه في بطء جنائزي إلى الدرج...

خطوة تتلوها خطوة..

ومن عل ترى الطابق الأول يتلاعب بالظلال.. كأن كل جماد فيه قد تحرر وظفر بحياة خاصة به..

حرارة (الكلوب) تحرق جانب وجهي الأيمن، والبرد يلسع جانبه الآخر.. واليد المرتجفة لـ (إيناس) تزيد الأمور سوءًا ولا تحسنها..

هو ذا الطابق الأول..

كل شيء كما كان.. لم يتبدل شيء.. فهنا جلسنا والتهمنا غداءنا وعشاءنا وثرثرنا..

لكن الباب الذي رأيته في الكوابيس مرارًا كان هناك.. وكان مواربًا..

في صوت مبحوح قلت لـ (إيناس) وأنا أشير اليه:

- «هذا الباب..»

خرج صوتي عاليًا برغمي.. لماذا تعلو الأصوات في الظلمة إلى هذا الحد حتى لتثير هلعك أنت المتكلم؟

لهذا خفضت من طبقة صوتي قليلًا.. وقلت:

- «هذا الباب.. فتحته في الحلم فرأيت الجاثوم ينتظرني وبدأت المطاردات

الرهيبة.. كان خطئي أنني فعلت.. والبارحة.. هل هي البارحة؟»

وأصابني ذلك الارتباك الذي يحدث حين تظل ساهرًا يومًا كاملًا.. فتتذكر أحداث النهار شاعرًا بأنها بالتأكيد حدثت في ذات اليوم.. ثم تتذكر أن الليل قد انتصف وأنّ هذا حدث أمس..

واصلت الكلام متغلبًا على هذا الخلل البيولوجي:

- «... البارحة.. دفعني الفضول لمحاولة فتح هذا الباب من جديد في الواقع.. لكنكم جئتم.. فتركته.. وبعد قليل وجدته مواربًا.. كأن شيئًا ما كان ينتظر حتى أفتح له..»

تساءلت (إيناس) وهي تواصل السير المتمهل:

- «ولكن هذا الـ.. الجاثوم كان يزورك قبل أن تجيء هاهنا بوقت طويل... أي أنه كان يملك حرية الانتقال.. فلماذا تظن أنك حررته؟»

- «حررت وجوده المادي.. وكان قبل هذا حرًا على المستوى المعنوي.. فكان يزورني آخر الليل.. ويجعلني أعيش كوابيس مريعة معه.. ثم يرحل تاركًا في فراشي تذكارًا يملؤني فرقًا، ويخلخل علاقتي بالواقع.. لكنه الآن قد تحرر ماديًا.. صار في عالمي حقًّا.. وهو يريدني.. بكل خلية في جسده لو كان في جسده خلايا.»

ثم بللت شفتي الجافة بلساني.. وهمست:

ـ «مازلت أتوقع أن أصحو صارخًا لأجد نفسي في فراشي.. وأدرك أنها حلقة جديدة من سلسلة الكوابيس إياها..»

- «كم أتوق لهذا.. لكنّ للأسف.. كل شيء يبدو حقيقيًا.. لا داعي لأن نتعلق بأمل واه كهذا..»

كنا قد وصلنا إلى الباب...

وعلى ضوء (الكلوب) حاولت فتحه عدة مرات لكنه لم يستجب.. كان موصدًا بإحكام.. قلت في حنق:

ـ «لقد حبسنا أبو (مها) هاهنا.. ذلك الوغد!»

قالت وهي تشير إلى المزاليج المغلقة:

- «لا تظلم الرجل.. تامل! الباب مغلق من الداخل!»

أزحت المزاليج جانبًا - وعددها أربعة ـ ثم حاولت فتح المقبض من جديد دون جدوى..

- «بالتأكيد هو موصد بالمفتاح كذلك.. إننا حبيسان هنا..»

ثم غمغمت من بين أسناني:

ـ «لا أحب هذا..»

كانت هناك نافذة في جزء من القاعة، لكنّها كأي نافذة طابق أرضي كانت مسدودة بالقضبان الحديدية..

قلت لها بعد تفكير:

- «سنصعد إلى أعلى حيث النوافذ غير مدعمة.. ثم نهبط إلى أسفل متعلقين بحبل أو شيء من هذا القبيل..»

- «هذا جميل.. ظننتك تدرس الرياضيات لا الألعاب الرياضية..»

- «أنا كذلك.. لكنّ لو كان لديك حل آخر فلا تبخلي به..»

وفي خطا حثيثة عدنا أدراجنا..

صعدنا في الدرج إلى الطابق الثاني.. وكانت الغرف كلها مفتوحة مباحة بعدما هجرها أصحابها..

غرفة الفتاتين: (إيناس) و(غادة) ستكون مناسبة حتمًا..

ودخلنا.. ومشيت إلى النافذة ففتحتها ليدخل هواء الليل البارد المرجف.. ومعه دخل الظلام الأخير.. الظلام المنهك المميز لآخر الليل.. ثمّة ديك يصيح في مكان ما من العزبة..

سألتني (إيناس) وهي تمسك (الكلوب):
- «ألا ترى أنه من الحكمة أن نتريث؟ لعل الفجر يسبقه؟»
- «لا أظن..»
ونظرت خارج النافذة عبر طبقات الظلام الكثيفة..
نعم.. هناك ماسورة صرف تهبط بمحاذاة النافذة.. لن يكون الأمر عسيرًا.. فقط لو أنّ أبي علمني (الهجامة) وسرقة المنازل بدلًا من إعدادي لأكون مدرسًا محترمًا..
لكن كل شيء كان يقول لي أن أحاول..
شيء ما قال لي: إن مصير السقوط من عل ليس أسوأ مما ينتظرني هنا لو لم أحاول..
ولكن (إيناس)..!

لن أتركها وحيدة في الغرفة.. ولن أجعلها تهبط قبلي لأستمتع برؤيتها تصرخ وهي تسقط من عل، لتتهشم إلى ألف شلو..

قرأت أفكاري فقالت وهي ترفع (الكلوب):

- «أنا سأكون بخير.. إنّه يريدك أنت.. وربما كان ابتعادك عنى هو الضمان الوحيد لسلامتي..»

كلام معقول ولا ريب.. أو هكذا خيل إلى وقتها..

إنني غدوت كنافخ الكير - في الحديث الشريف - الذي لا بد أن يؤذي من معه بلهبه أو ريحه الكريهة..

تعلقت بحافة النافذة ووضعت قدمي على إطارها..

- «كـ.. كن حذرًا!»

لكنّ نظرة حازمة من عيني أخرستها... أنا أعرف كيف تتكفل هستيريا النساء بإفساد الأمر بالنسبة للرجال.. كل ما أحتاج إليه هو صرخة غير متوقعة كي تفلت يداي وينتهي كل شيء..

وكأنما تداركت خطأها.. عادت تصلح ما كان:

- «ليكن.. ليكن.. هيا.. والله معك..»

أنا الآن خارج النافذة.. أمد يدي ببطء.. ببطء إلى ماسورة الصرف.. وأخطو بضع خطوات جانبية..

أمّا (إيناس) فأخرجت جذعها بالكامل من النافذة، والكلوب في نهاية ذراعها محاولة جعل الرؤية متاحة لي.. سيكون التمسك

بالماسورة ممكنًا.. لكنني - بعد أن أهبط أربعة أمتار - سأغرق في الظلام الدامس.. وعليّ أن أتحرك مهتديًا بالجاذبية الأرضية لا أكثر..

أخيرًا أمسكتها.. باردة كالثلج، رطبة كبطن ضفدع، زلقة كأرضية الحارة التي نشأت فيها.. لكني أمسكتها.. لففت ذراعي وساقئ حولها وشرعت أهبط..

قلبي يرتجف في ضلوعي.. لكني أشعر بكعب حذائي يلمس هذا البروز الواصل بين أجزاء الماسورة، وهو يصلح كمحطة ارتكاز..

أستجمع أنفاسي وأواصل الانحدار لأسفل..

ومن أعلى يبرز لي وجه (إيناس) والمشعل في يدها.. كشمس تطمئن على سلامتي.. وجهها يصغر.. ويصغر.. ثم.....

سمعتها تصرخ!

كانت تنظر إلى الوراء.. إلى داخل الحجرة وتصرخ كأن هناك من ينتزع كبدها حية..

وإلى جوار رأسي طار جسم مشتعل ما لبث أن هوى.. ليتهشم على الأرض.. وتنتثر منه النيران.. وتلتهم بعض الأعشاب..

لقد سقط (الكلوب) من يدها حين.. حين داهمها من الخلف..

وهأنذا معلق وحدي في الظلام الدامس.. أصرخ:

- «(إينااااس)!»

أصرخ حتى تنزف الشرايين في ملتحمتي.. وتنفجر أوردة عنقي.. وتتمزق أوتار حنجرتي:

- «(إينااااس)!»

محرومًا من الرؤية.. محرومًا من الأرض الثابتة.. محرومًا من المعرفة.. لقد حدث شيء مريع هناك.. لكنّ ما هو؟

- «(إيناااااااااااااااس)!»

كانت هذه آخر صرخة في رصيد حنجرتي.. بعد هذا صارت في حاجة إلى قرض كي تستطيع إصدار صرخات أخرى..

بعدها تخلت يداي عن الماسورة.. لم يعد ثمّة مبرر لاستمرار إرادة الحياة في السيطرة.. وقلت لنفسي إن هناك احتمالًا لا باس به أن اهلك.. لكنّ الاحتمال الأكثر إرعابًا أن أظل حيًا مهشّم الأوصال بانتظار الشيء..

الخيار غير متاح..

للحظات استمر في السقوط.. ثم هأنذا ملقى على الأرض فوق كومة من الأعشاب الجافة.. لم أمت ولم أتهشم.. يبدو أنني كنت قد دنوت جدًا من الأرض - مترين أو أكثر قليلًا - حين صرخت (إيناس)..

ونهضت.. ثمّة رقعة من الأعشاب الجافة تشتعل جواري ورائحة الكيروسين

تتصاعد منها.. مددت يدي إلى عصا خشبية وجدتها هناك.. ولففت حزمة من العشب الجاف حول طرفها.. ثم دفنتها في النيران أقتبس منها جذوة..

هذا المشعل يكفيني إذن..

ومترنحًا لاهثًا رحت أدور حول القصر.. لا بد من مدخل.. لا بد...

إن عقلي الباطن يقول لي كلامًا مثيرًا.. كلامًا عن غطاء معدني في الأرض له مقبض وتكسوه الطحالب والأعشاب.. كأنه غطاء مجرور منسي.. وعقلي الباطن لا يكذب.. إنّه سمع بعض خلايا مخي تهمس بهذا السر.. خلايا تحمل صبغيات مملوكي من (أرمينيا) اسمه (كتخدا طومان)...

إن القصر قصري.. ولا بد أنني أعرف كل ركن فيه.. فقط لا أعرف أنني أعرف...

❋ ❋ ❋

«استخدم عقلك.. وحاول أن تسترجع من خلايا مخك القديمة أسرار جدودك..»

❋ ❋ ❋

هي ذي الفتحة.. حتمًا لم يرها أحد من قبل.. ربما من مارس ١٨١١ عندما حدثت المذبحة.. ترى هل تستجيب؟

الغطاء ثقيل.. هه! هه! وضعت المشعل مستندًا للجدار.. ورحت أجذب المقبض بكلتا يدي.. هاهو ذا!

ترى هل استعملت هذا المدخل في أحلامي؟ لا أذكر.. لقد حلمت مائة حلم، استعملت فيها مائة مخرج ومدخل سرّي، لأفر من مائة خطر..

توجد درجات في جانب النفق.. بالتأكيد... سأهبط فيها حاملاً المشعل..

إن هي إلا ثوان وأصير في قلب قصر أجدادي.. في قلب السر ذاته.. ولسوف يجدني الجاثوم حتمًا.. وعندها.......

* * *

هذه المرّة لم يعد الخوف يحركني بل الغضب..

هذا الجاثوم الأحمق المتعصب الذي جاء ليفسد حياتي، ويعكر عملي وحياتى الأسرية وحبي وكل شيء.. لماذا؟ لأية جريرة؟

لأن جدي كان ساحرًا شريرًا.. وماذنبي أنا؟ أنا الذي أخشى أن أقرأ كتابًا عن السحر لمجرد الفضول.. (لا تزر وازرة وزر أخرى).. هذا هو منطق الدين المحكم القويم.. لكنّ الجاثوم لا يعرف المنطق.. إنّه الشر والحقد مجسدين...

لماذا أدفع الثمن؟ لماذا تتعذب تلك الفتاة البائسة؟



الغطاء ثقيل . . هه ! هه ! وضعت المشعل مستندًا للجدار . .
ورحت أجذب المقبض بكلتا يدىّ . . ها هو ذا !

الإجابة على هذه الأسئلة تفعمني غضبًا ورغبة في التدمير..

* * *

كنت في القاعة الواسعة إياها..

القاعة التي كنت أصلها متدحرجًا فوق المنحدر، بعد عبوري للكوة.. وكان بوسعي الآن أن أرى القدر المقلوب إياه.. وحوله العظام المتناثرة.. إن هذا هو عرين (النكرومانسي)..

كانت هناك منضدة حجرية عريضة.. لا أذكر أنني رأيتها من قبل.. ورأيت معلقًا فوقها خطافين.. خطافًا يتدلى منه منشار

ضخم.. وخطافًا يتدلى منه فأس وسكين عملاقة...

وعلى ضوء المشعل رأيت

(يجب أن أجد مشعلًا آخر قبل أن...)

ثلاثة أجسام ممدودة فوق المنضدة الحجرية، التي لم تكن في الواقع سوى

(.. ينطفئ هذا.. وعندها أغدو أعمى..)

منضدة تشريح بدائية.. وميزت جسدي رجلين ممزقين.. خادمين على وجه الدقة.. وجسد امرأة.. فتاة على وجه الدقة.. (إيناس) إذا توخينا الحرص الشديد..

- «هاااه هاه هاه هاه!»

اهتزّ القبو كله بصدى ضحكاتي الهستيريّة..

- «آهاه هاه هاه! هاه هاه هاه هاااا»!

الجاثوم يؤدي عمله جيدًا.. يستعيد الأيام الخالية.. هاه هاه! إنّه يقول لي: ستعود الساعات الحلوة من جديد! هأنذا قد أعددت الجثث ـ حصيلة الليلة ـ كي تمارس عليها ألاعيب (النكرومانسي).. لقد كنت أفعل هذا لجدك.. ولا أرى ما يمنع من أن أفعله معك.. صحيح أنني أكرهك.. صحيح أنني سأبطش بك.. لكني ملتزم بأداء واجبي قبل كل شيء..

صحت في حنق بأعلى صوتي:

- «وأين الخفير أيها الغبي؟»

الخفير؟ الخفير لم يتبق منه شيء.. أنت رأيته في غرفة الكرار.. هل نسيت؟ للحظة حسبته ثمرة طماطم وحسبت أنني مكلف

بتحويله إلى صلصة.. كان هذا خطأ.. كنت متحمسًا كما تعلم..

هاه هااااااه هاه!

وهنا توقفت عن الجنون..

شعرت بشيء يتحرك خلفي فاستدرت..

كان الجاثوم قادمًا نحوي..

إنها المرّة الأولى التي أراه فيها وأنا متيقظ..

فكيف أصفه لك؟

كان.. كالجاثوم في كل شيء..

❋ ❋ ❋

# ١٠ - أنا والجاثوم...

ربما كانوا صادقين حين وصفوه بقرد عملاق.. وأنا صادق حين رأيته شبيهًا بأصنام الجاهلية الأولى.. فهو شيء بلا ملامح.. كتلة من السواد المبهم... لكن له ما يشبه قدمين يمشي عليهما.. وما يشبه يدين يلوح بهما متوعدًا..

ولم يكن له صوت.. بل هو يئز كمحرك الثلاجة كما عرفته دائمًا..

أما عن حجمه.. فهو متغير.. تارة يتضخم - حين يثور - ليملأ المكان.. وتارة يضمر حتى يصير ارتفاعه ثلاثة أمتار لا أكثر..

كان ابن الظلام وجزءًا منه..
لهذا لم يكن ضوء المشعل يصل إليه أبدًا.. دائمًا هو في الركن المظلم من المكان.. يتشكل حسب الظل..
كان كابوسًا حيًّا..
كان هو قاتل (إيناس)..
كان هو المسئول عن جنوني وتفكك بيتي..
كان المسئول عن مبيتي في المقهى كل ليلة..
كان هو من يدسّ المشاعل والعظام في فراشي..
كان هو من جعل آخر الليل أسوأ ساعاتي..
كان هو.... الجاثوم..

* * *

مددت يدي إلى جيبي.. كانت الرقاقة النحاسية هناك.. الرقاقة التي وجدتها في التمثال والتي حفرها السيد (سمبسون) يومًا ما عام ١٨٠٣.. ماذا فيها؟ لا أدري.. لكنه يستحق المحاولة..

لا أذكر الكلمات اللاتينية.. لكنّها كانت شيئًا كهذا:

«كاستوس كوربوس إنكيوبوس نكرومانسوس»

قرأتها بصوت عالٍ.. وأعدت قراءتها مرارًا..

فماذا حدث؟

رأيت الشيء يهدأ ويبتعد قليلًا..
إذن فهذه الكلمات نوع من التعويذة.. تعويذة ترغم الشيء على عدم إيذاء سكان القصر.. لهذا هي مدفونة في كل تمثال في كل حجرة هنا.. صحيح أنه هاجم بعضنا، لكنّ ربما كان هذا لأن التعويذة لم تكن في تماثيلهم.. من يدري؟ ربما أبقى (كتخدا طومان) بعض الغرف دون تعاويذ لينام أعداؤه فيها.. ويفتك بهم الجاثوم..
هذا ممكن جدًا..
لماذا لم يهاجمني الجاثوم أو يهاجم الأب أو يهاجم الشابين؟ لأن تماثيل غرفاتنا كانت تحوي التعويذة اللاتينية..
تقدمت خطوتين للأمام..
واختلست نظرة إلى جثمان (إيناس)..

كان هذا الجسد يفيض بالحياة منذ ربع ساعة أو أكثر قليلًا.. وكان يهيم بي حبًا.. والآن فرغت الحياة منه كلعبة أطفال تلفت بطاريتها.. لماذا؟ لماذا؟ ولأي غرض عبثي فعل ذلك؟

- «لماذا أيها الوغد؟»

وهويت بالمشعل على أطرافه.. فتراجع..

- «لماذا أيها الشيطان؟»

ودفنت المشعل في مكان الوجه.. وشممت الشياط المميز..

- «لماذا يا كتلة الشر القذرة؟»

الوحش القادم من كتب السحر المغولية - لو كان للمغول كتب - يتراجع إلى الوراء.. لكن ليحسن الوثبة بالتأكيد...

كان الباب ورائي.. الباب الذي يقود إلى الهاوية، التي تلتهب الحمم في قاعها.. أتراها موجودة هنا أيضًا؟ هذا مستحيل جيولوجيًا على قدر علمي.. لسنا في منطقة بركانية.. لكنّ هذا الباب يفضي إلى شيء ما.. ويمكن أن أجعله ينزلق عبره ليهوى إلى ما لا نهاية...

إنها الحيلة المعروفة: أقف على حافة الهاوية وأغرية بالانقضاض، ثم أتنحى جانبًا ليسقط هو من عَلٍ..

هرعت إلى الباب والمشعل في يدي..
فتحته.. لكنه لم يكن سوى خزانة كتب.. ثلاثة كتب غليظة تساقطت على الأرض.. وبعض عظام متآكلة نخرة.. وشموع.. ورائحة عطن لا يمكن وصفها..
كان هذا حين ثار الشيء من جديد.. وقرر أن يهجم..
وثبت إلى الوراء.. ورحت أناوره عبر المساحة الواسعة.. وأنا أدرك أن اللعبة

(لا توجد فئران هنا.. هذا غير معتاد!)

لن تطول كثيرًا.. هذا الشطرنج قليل الخانات حقًّا..
ولم أجد سبيلًا لإطالة الوقت سوى الإمساك برقيقة النحاس من جديد،



الوحش القادم من كتب السحر المغولية . . لو كان للمغول كتب . . يتراجع إلى الوراء . .

وبصوت جهوري هتفت:
- «كاستوس كوربوس إنكيوبوس نكرومانسوس!»
من كان هذا كافيًا لتقليل حماس الشيء قليلًا..
وعاد من جديد يجول في ظلال القبو.. كأنما يستجمع قواه من أجل الهجمة التالية.....
من المستحيل قتله.. ولو حدثت المعجزة وفررت هنا فهو حر.. ولسوف يجدني حيثما كنت من خلال كوابيسي....
يجب إنهاء الأمر هنا.. وحالًا....
تمددت على الأرض في استسلام جوار الجدار الرطب.. أغمضت عيني.. لن يكون عليه سوى أن يجثم فوق أنفاسي

حتى أختنق.. سأتخيل أنني طفل رضيع نسيت أمّه الوسادة فوق رأسه الدقيق..
وهنا وجدت أحد الكتب جواري..
أحد الكتب التي سقطت من الخزانة..
كانت صفحاته مفتوحة.. صفحات من الرق (شيء ما حدثني أنه جلد الموتى المدبوغ) وقد امتلأ بكتابة لا عهد لي بها..
إنه كتاب سحر.. أقسم على هذا...
والرسوم التي فيه.. رسوم أقرب لكتب التشريح الصينية الغابرة.. والتي نراها كلما تحدث أحدهم عن الإبر الصينية..
إنه يشرح فنون (النكرومانسي).. هذا مؤكد....
وهنا التمعت الفكرة في ذهني...

ماذا لو أننا ـ على سبيل التجربة ـ أضرمنا النار في هذه الكتب اللعينة؟ إن المشعل جواري..

ليس عليّ سوى أن أقربه من الصفحات....

هو ذا دخان أخضر كريه الرائحة ينبعث منها، والصفحات تتجعد.. رائحة الشواء التي تؤكد لي من جديد أنّ هذا جلد بشري مدبوغ لا صفحات ورقية..

ومددت يدي لألقي في اللهيب بكتاب ثان.. فثالث...

دع هذا القبح ينته بأي ثمن...

ونظرت إلى الوارء في تشف لأرمق الجاثوم..

لكنه لم يبدُ قلقًا بشكل خاص.. وهذا ما أثار قلقي أنا..

نظرت إلى الوراء من جديد، فوجدت مشهدًا لا يسهل نسيانه.. لقد عادت الكتب لحالتها الأولى دون أية مشاكل**!** لا ورقة واحدة محترقة.. ولا ذرة رماد تلوث أية صفحة..

الأمر واضح ولا يتطلب عالمًا في الفيزياء النوويّة.. هذا الكتاب اللعين باق للأبد.. لا توجد طريقة لتدميره..

ومن الواضح أن الجاثوم باق معه....

❋ ❋ ❋

# الخاتمة كما حكاها (هـ)

ونظرت إلى الوراء.. إلى الظلال التي ذاب الجاثوم فيها، لكنه ظل هناك مصدرًا لذلك الأزيز الرهيب الرتيب..

اتجهت من جديد إلى الخزانة التي كانت الكتب فيها.. ثمة شيء ليس على ما يرام في هذا الجدار.. إن فيه مقبضًا نُحت في الصخر كمقبض الباب.. أي أن ظهر الخزانة هو ذاته باب.. باب يفضي إلى ماذا؟

الجاثوم يتحرك من جديد...

* * *

كاستوس كوربوس إنكيوبوس نكرومانسوس..

* * *

الجنود يطلقون الرصاص.. صوت الدويّ يصم الآذان.. والكل يحاول الفرار.. لكنّ الأبواب مغلقة.. مغلقة... خاننا (محمد علي) إذن!

تصطدم الطلقات بالقرميد والحجارة، فيتناثر الغبار في كل مكان.. وأجساد عديدة تهوي تحت الأقدام...

رصاصة! آي! رصاصة! آي..

مملوكي يحاول التعلق بالبوابة.. عملاق هو.. ضخم كدب.. لكنّ جسده يتلوى ألمًا

وتتخلى يداه عن التشبث.. ويسقط فوق رفاقه..
رصاصة! إنك تموت.. كلا.. لن يكون هذا.. ليس بهذه البساطة.. إن (كتخدا طومان) لن يموت بهذه الطريقة ولا طريقة أخرى..

*   *   *

بعد ما رددت العبارة من جديد؛ تراجع الجاثوم للوراء بضع خطوات.. كان ذهني ينبض في جنون.. أحداث المذبحة وصهيل الخيل، وقراع سيوف المماليك وهم يلوحون بها محاولين تحطيم البوابة.. كل هذا في ذهني الآن.. أنا قرأت عن المذبحة

مرارًا.. لكني لم أتوغل فيها إلى هذا الحد قط..

وفي ذعر أدركت أنني لست من يفكر الآن..

إنها خلايا (طومان) الحية في مخي تفكر!

فتحت الباب الجداري في مشقة.. وقبل أن أبدأ العمل كنت أعرف جيدًا أن ما وراء الباب هاوية سحيقة مظلمة.. الهاوية التي رأيتها في نومي مرارًا..

دلفت عبر فرجة الباب إلى الخارج.. كان هناك إفريز واهٍ جوار الجدار.. لكني استطعت أن أثبت قدمي عليه.. ثم فردت ذراعي لأجعل منهما ممصات كممصات العناكب كي يزداد جسدي التصاقًا بالجدار..

ورحت ـ في عسر ـ أبتعد عن فتحة الباب، ووجهي يحتك بالحائط الرطب عطن الرائحة.. والهاوية تفتح فاها في نهم تحت قدمي......

لن يلبث الجاثوم أن يلحق بي..

لكنه يملك جسدًا ضخمًا غبيًا.. وبالتأكيد لن يتوقف في الوقت المناسب مثلي..

* * *

كان المكان مخيفًا.. مخيفًا حتى بالنسبة لي... أنا (كتخدا طومان)..

ورحت ـ في هلع ـ أتأمل جسد الفلاح المسجّى على المنضدة الحجرية، في ضوء المشاعل الخافت..

لكن أبي قال وهو يرتدي عباءته السوداء.. ويسدلها على وجهه:
- «هذا هو سرنا يا بني.. وسر قوتنا.. السر الذي تعلمناه من المغول.. وبه امتلكنا حكمة الدهر كله...»
قلت وانا ارتجف:
- «مـ.. ما هو هذا السر؟»
- «إنّه السر الذي يعلمك أسرار الموتى جميعًا.. كل ما سمعوه ستسمعه.. كل ما قالوه ستقوله.. كل ما شموه ستشمه.. كل ما أكلوه ستذوقه.. كل ما فكروا فيه ستعرفه..»
ومد يده يتناول سكينًا غريبة الشكل.. ويدنو من الجثة قائلًا:
- «والآن سأريك كيف!»

* * *

وشعرت بالجسد الضخم يدنو من فرجة الباب..

للحظة توارى ضوء المشعل القادم من الخارج.. وتعالى صوت الأزيز.. ثم...

تعالى الأزيز أكثر فأكثر..

وحدث ما توقعته تمامًا.. هوى الجسد من أعلى.. لم أر شيئًا بفضل الظلام.. لكني شعرت بتفريغ الهواء الهائل يوشك أن يجذبني معه لأسفل..

ومرت خمس دقائق كاملة - أم لعلي حسبتها كذلك - ثم علا صوت اصطدام الجسد الهائل بقاع الهاوية..

بعدها ساد الصمت والظلام...
وتنهدت الصعداء.. لقد ولّى الجاثوم إلى غير رجعة.. وعدت حرًا..
حرًا؟

* * *

كم من ليلة قضيتها جوار أبي.. أمسك الكتب التي تحكي تفاصيل هذا العلم الرهيب.. وأردد عبارات السحر المكتوبة بلسان مغولي قديم... لم يكن المغول يكتبون؛ لكنّ سحرتهم كانوا يدونون طقوسهم بدقة..
أمّا أبي فكان يواصل مهمته الرهيبة..

وجاء اليوم الذي ناولني فيه السكين، وطلب مني أن أبدأ..
و.. بدأت......

* * *

حين عدت ـ في حذر ـ إلى الباب لأجتازه عائدًا إلى القبو.. كان لي عقلان.. عقلي الحاضر.. عقل (هـ) الذي يعي اللحظة بكل دقائقها.. وعقل (طومان) وعقل أبيه وعقل جده..
عقل يفكر بمعايير الطائرات والصواريخ والتلفزيون.. وعقل يفكر بمعايير الجياد والسيوف والوالي والعمامة والعباءة.. وكلاهما يقظ يواجه الأمور في تنبه تام...

لكني تخلصت من الجاثوم اللعين.. لم يعد أمامي سوى.. لحظة!

كان الوغد واقفًا هناك بانتظاري!

داخل القبو.. هو ذاته.. بضخامته.. بصوت أزيزه الرتيب..

إنه كابوس!

لِمَ لا؟ أليس الجاثوم كابوسًا ماديًا؟

إنه لم يمت حين سقط في الهاوية.. بل وعاد من حيث لا أدري إلى ذات المكان.. شيء طبيعي جدًا.. أليس جاثومًا؟ أليس خارقًا لكل ما اتفق عليه علماء الفيزياء والجغرافيا؟

* * *

- «الجاثوم - أي بني - هو خادمك المطيع، وهو من يعد للأمر عدته، ويخنق أعداءك وهم نيام.. فلا تهبه..»

ثم هزّ أبي إصبعًا منذرًا في وجهي.. وقال:

- «إن فن استجواب الموتى فرض على كل من سمع عنه.. لا يُمكنك الرفض ولا التنصل من الآن فصاعدًا.. وإلا وجدك الجاثوم وأفناك في نومك مثلما أفنى مئات من قبلك..»

ووضع يده على كتفي.. لم أر عينيه وراء الرداء لكني شعرت بهما:

- «لا تتوان لحظة عن توريث هذا الفن لأبنائك وأبناء أبنائك..».

كان الجاثوم يتحرك في ركن القاعة المظلم.. وعرفت أن القبول هو اختياري الوحيد..

* * *

نعم.. القبول هو اختياري الوحيد..

الآن فقط أعرف أن السبيل الوحيد للخلاص من الجاثوم هو أن أكون في صفه.. وأن أفي بالعهد الذي قطعه جدي منذ دهور..

عندئذ يعود الجاثوم خادمي.. وأسحق أعدائي جميعًا..

وفي هذه اللحظة تذكرت كل شيء عن فن (النكرومانسي).. فجأة لم يعد الأمر

غامضًا.. كأنني كنت أمارسه أمس فحسب..
مددت يدي للكتاب الأول وبحثت عن صفحة الطقوس..

* * *

هو ذا المشعل يرمي ظلاله على القبو.. صوتي الرتيب يتردد في أرجاء المكان.. وأزيز الجاثوم في الظل يتردد معلنًا عن رضاه التام...
واتجهت إلى جثة (إيناس).. ورفعت السكين..
الخطوة الأولى هي أن......

* * *

إنه الفجر....

لقد انتهت ساعة الذئب...

كنت أنا قد تخلصت من آخر الأشلاء.. رميتها في الهاوية ثم أغلقت الباب وحشرت الكتب حشرًا في طيات ثيابي.. إن العظام الآن في هاوية في قاع قبو في قاع قصر.. لن يجدها أحد أبدًا..

ومررت جوار الجاثوم دون أن أنظر له.. وغادرت القبو...

والغريب أن الحياة لم تعد بهذا الغموض السابق..

إن لي هدفًا.. ولي خطة محددة لمواجهة الغد..

كل ما أريده هو بيت منعزل.. بيت له قبو.. بيت يصلح لممارسة (النكرومانسي).. الفن الذي تعلمته منذ ساعة، وأتقنته كأنما أمارسه منذ عشر سنوات.. منذ عشرة قرون.. منذ خلق الكون..

وماذا عن موتي؟ من يرث هذا الفن بعدي؟ من يرث الجاثوم؟ من يدري؟ إنني أنقب في تاريخ الأمم كلها.. ويومًا ما ستعلمني جثة ما طريقة للتغلب على العقم.. طريقة لكي يكون لي إبن يتعلم مني كل شيء.. كل شيء..

فقط على أن أواجه أسئلة الشرطة عن (إيناس).. وعن كل ما حدث في تلك الليلة.. لن يكون هذا صعبًا.. فوالد (مها)

لن يتكلم.. لن يتكلم أحد.. لأن أحدًا لن يصدّق.. وسيتم اعتبار (إيناس) واحدة أخرى من اللواتي خرجن ولم يعدن.. وكذا نفس الشيء بخصوص الخدم..

ان مستقبلًا باهرًا ينتظرني..

صدقني يا دكتور (رفعت).....

❋ ❋ ❋

# خـــاتمــة
## د. رفعت اسماعيل

كان الأجدر أن أسمّي هذه الأسطورة باسم (أسطورة ساعة الذئب) - وهو اسم جميل يغري باستعماله يومًا ما - لكني لم أرد أن يحسبها القراء أسطورة أخرى عن المذءوبين......

أعتقد أنها أسطورة مرعبة حقًا.. ولا أخال القارئ يقدر على قول إنها خالية من الرعب.. على الأقل لن يقولها بضمير مستريح تمامًا..

إن أسطورة الجاثوم لتترك غصة في الحلق.. خاصة بعد هزيمة بطلها وخضوعه لقدره الشيطاني، ووفاة (إيناس) الباسلة..

ثم الحقيقة المفزعة: حقيقة أن الجاثوم ما زال في هذا العالم.. بل هو - غالبًا ـ في مصر في هذه اللحظة..

من العسير أن نجد (هـ).. فهو بالتأكيد يعيش وحيدًا في بيت منعزل، والجيران يجدونه غريب الأطوار.. لكنهم لا يتصورون لحظة حقيقة ما يحدث في قبو هذا المنزل ليلًا..

كم من أعدائه ماتوا نيامًا إثر كابوس حاد؟ كم من الجثث اختفت من المقابر دون تفسير؟ لا أحد يدري..

إن الشر قد يمتد أثره إلى ما بعد وفاتك.. وحتّى أحفادك يدفعون ثمن الآلام التي اقترفتها أنت.. لأنّهم يرثون جريمتك..

ما هو الدرس المستفاد من هذه الحكاية؟

لا أدري.. أنا لا أومن بأن القصة يجب أن تحوي في طياتها موعظة ما.. وإلا كان المقال أكثر فعالية..

لكن ـ ما دمتم تصرون - سأحاول:

١ - لا تكن مطمئنًا إلى أجدادك.. فلربما كان أحدهم من (أرمينيا)!

٢ - إن (النكرومانسي) هواية سيئة..

٣- لا تصادق الفتاة الحسناء التي تجلس بجوارك في السينما..

٤ - لا تقبل دعوة إلى يوم في الريف إذا كان لك جد مملوكي!

٥ - ليست كل قصة تحوي دروسًا مستفادة..

ومن نافل القول أن أضيف هاهنا، أنني أفكر أحيانًا في إمكانية أن يرسل لي الأخ (هـ) جاثومه في منامي كي يمنعني من الثرثرة.. أليس هذا متوقّعًا؟

والآن يمكننا ترك الجاثوم في قبوه، وغلق هذا الكتاب.. لنتحدث الآن عن حلقة الرعب الثالثة..

إن (شريف السعدني) مذيع ذكي وعلى قدر غير عادي من الحيوية، والدليل على هذا أنه اختارني بالذات لأكون موضوع برنامجه الليلي الرهيب (بعد منتصف الليل)..

بعد منتصف الليل تحدث أشياء مريبة حقًّا.. لا تتكتم الأمر.. ارفع سماعة الهاتف واطلب رقمنا.. واحك كل شيء..

ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

---

رقم

*الإيداع:*
**١٦٠٦**

---

---

المطبعة
العربية
الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧
المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت:
٢٨٢٣٧٩٢ -
٢٨٣٥٥٥٤

## الفهرس

# ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

## أسطورة الجاثوم

إنه نداء عَبْر الأجيال .. عبر الأزمان .. عبر الآباد .. يدعوك إلى أن تكون هنا .. والكابوس الذي كانت أوصالك ترتجف منه صار حقًا .. إنها قصة شنيعة عن الكوابيس ، وهواة تعذيب الموتى ، والبقاء وحيدًا في قصر فسيح مظلم يجول فيه كيان مريع .. إنها قصة عن الخوف حين يصير ملكًا ..!



د. أحمد خالد توفيق

**العدد القادم:**

أسطورة بعد منتصف الليل




الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢


الثمن في مصر ــــ
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

# Notes

[←1]

الشاعر الجاهلي الى قضى ليالي سوداء خوفًا من بطش (النعمان) به.. فصارت (الليلة النابغية) مضرب المثل في الأرق

[←2]

لحسن الحظ لم يعرف (هـ) بعد من هو خطيب (هويدا) السابق!

[←3]
يقتضي العرفان بالجميل أن نذكر أن المماليك هم من هزموا (هولاكو)، وسحقوا الصليبين، وأسروا (لويس التاسع).. وتركوا طابعًا لا يمحى في عمران القاهرة بما فيه الأزهر.

[←4]

١ مارس ١٨١١ م